إرمينية قبل الفتح الإسلامي

وفي أيامه

تـأليف

اللواء الركن محمود شيت خطاب

جمع وترتيب : المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي – المجلد 34 – ج2–

ص 45 – 95

1403هـ - 1983م

إرمينية
قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه

اللواء الركن محمود شيت خطاب



فرزة من : مجلة المجمع العلمي العراقي
الجزء الأول – المجلد الرابع والثلاثون

ربيع الأول ١٤٠٣ هـ
كانون الثاني ١٩٨٣ م

إِرْمِينِيَة
قَبلَ الفتح الإسلامي وَفي أيَامِهِ

اللواء الركن محمود شيت خطاب

(عضو المجمع)

استعادة فتح ارمينية

الموقف العام :

ابتدأت المشاكل والفوضى تعمّ أرجاء الدولة الاسلاميّة من سنة ثلاث وثلاثين الهجريّة (٦٥٣ م) في أواخر عهد عُثمان بن عَفّان رضي الله عنه ، وبدأت هده المشاكل والفوضى في « الكوفة » و « البصرة » . وتكاتب نفر من المسلمين إلى بعضهم : « أن أقِدْموا ، فانّ الجهاد عندنا » ، فأصبح الجهاد في المدينة المنوّرة قاعدة المسلمين الرئيسة وعاصمتهم ، على رأى أولئك النفر ، لا في البلاد المفتوحة في خارج شبه الجزيرة العربية ، ولا في البلاد المجاورة التي تهدّد البلا د المفتوحة !

وفي سنة خمس وثلاثين الهجريّة (٦٥٥ م) قُتل عثمان بن عفّان رضي الله عنه في المدينة المنورّة بيد المسلمين لا بيد أعدائهم ، وبذلك أصبحت سيوف الفاتحين عليهم لا على مَن يعاديهم ويحاربهم .

وتولى الخلافة عليٌ بن أبي طالب رضي الله عنه ، والقلوب مختلفة والنفوس متفرّقة والبلاد مضطربة ، فسار قُسْطنطين بن هِرَقْل في ألف مركب سنة خمس وثلاثين الهجريـّة(*)[180] (٦٥٥ م) يريد بلاد المسلمين، وهكذا

(*) ارقام الهامش تابعة الى القسم الاول من البحث .

(١٨٠) ابن الأثير (٣/١٩٩) .

أصبح الطالب مطلوباً ، والمنتصر مغلوباً .

وفي سنة ست وثلاثين الهجريّة (٦٥٦ م) نشب الخلاف في الأمصار والمدن الاسلامية داخل البلاد العربيّة ـ قاعدة الفتح والفاتحين ، وضعفت سيطرة القيادة المركزيّة .

وفي هذه السنة ، جرت معركة (الجَمَل) في البصرة [١٨١] ، اقتتل فيها الفاتحون ، وتساقط منهم في ساحة المعركة عشرات الألوف من قادة الفتح وجنوده .

وفي هذه السنة أيضاً ، سار الخوارج إلى (سِجِسْتان) [١٨٢] ، فامتدّ الاقتتال بين الفاتحين إلى البلاد المفتوحة في خارج البلاد العربيّة .

وفي سنة سبع وثلاثين الهجريّة (٦٥٧ م) ، تطوّر الاقتتال بين الفاتحين قادة وجنوداً في معركة (صِفّين) [١٨٣] تطوّراً خطيراً ، وسقط عشرات الألوف من القتلى والجرحى في ميدان الاقتتال ، فأصبح الصدع من الجانبين عرباً مسلمين لايقبل الالتئام .

وانطلق الشاعر العربي يعتصر قلبه شعراً فقال :

أصبحت الأمةُ في أمرٍ عَجَبْ   والمُلكُ مجموعٌ غداً لمن غَلَبْ
فقلت قولاً صادقاً غير كَذِبْ   إنّ غداً تهلكُ أعلامُ العربْ [١٨٤]

وفي هذه السنة انتقضت (خُراسان) وامتنعت ، فحاصر أهلها عامل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حتى صالحهم بعد جُهدٍ جهيد [١٨٥] ، وبدأ قتال الخوارج ، فسقط آلاف القتلى والجرحى منهم رجالٌ عليّ بن أبي

(١٨١) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٣/٢٠٥-٢٦٤) .
(١٨٢) ابن الأثير (٣/٢٦٤) .
(١٨٣) انظر تفاصيل المعركة في : ابن الأثير (٢٧٦-٣١٦) .
(١٨٤) الشعر من قول الشاعر : كعب بن جميل التغلبي ، انظر الطبري (٥/١٤) .
(١٨٥) ابن الأثير (٣/٣٢٦) .

طالب رضي الله عنه [١٨٦] بعد اقتتال مرير .

وفي سنة ثمان وثلاثين الهجريّة(٦٥٨م) ملّك عمرو بن العاص [١٨٧] مصر وقتل محمد بن أبي بكر الصدّيق عامل عليّ بن أبي طالب على مصر [١٨٨] ، فأصبحت الدولة الاسلاميّة دولتين تعمها الفتن والاضطرابات والفوضى .

وفي سنة تسع وثلاثين الهجريّة (٦٥٩ م) ، طمع أهل (فارس) و (كَرْمان) في كسر الخراج ، فطمع أهل كلّ ناحية وأخرجوا عاملهم [١٨٩] واشتدّ القتال بين رجال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والخوارج وفرّق الاقتتال بين الدولتين الاسلاميتين ، وأصبحت غاراتها تنصب على بلاد المسلمين المفتوحة لا على بلاد الأعداء لفتح جديد .

وفي سنة أربعين الهجريّة قُتل أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه بيد عربي في عاصمته الكوفة في المسجد وهو ينادي : الصّلاة . . . الصّلاة . . . ! [١٩٠]

لقد استشهد ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة : عمر بن الخطّاب قتله فارسيّ ، وعثمان بن عفّان قتله العرب ، وعليّ بن أبي طالب قتله عربيّ من مُراد .

وبويع معاوية بن أبي سفيان ، ولكن الدولة الاسلامية كانت تغلي كالمِرجَل ، وأصبح الفاتحون شيَعاً وأحزاباً .

وفي سنة إحدى وأربعين الهجريّة (٦٦١ م) ، بدأ الاقتتال بين معاوية

(١٨٦) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٣/٣٣٤-٣٤٨) .
(١٨٧) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح الشام ومصر (١٢٣-١٦٣) .
(١٨٨) انظر التفاصيل في الطبري (٥/٩٤-١١٠) .
(١٨٩) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٣/٣٨١-٣٨٢) .
(١٩٠) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٣/٣٨٧-٣٩٦) .

والخوارج ، فنكثت (خُراسان) [١٩١] .

وفي سنة اثنتين وأربعين الهجريّة (٦٦٢ م) ، بدأت تباشير الاستقرار في البلاد العربية ، فغزا المسلمون (اللّان) والرُّوم ، وهزموهم هزيمة منكرة [١٩٢] .

وفي سنة ثلاث وأربعين الهجرية (٦٦٣ م) غزا المسلمون (سِجِستان) بعد أن انتقضت ، فاستعادوا فتحها بلداً بلدا [١٩٣] ، كما استعادوا فتح (طخارستان) [١٩٤] .

ومن سنة أربع وأربعين الهجرية حتى وفاة معاوية بن أبي سفيان سنة ستين الهجرية (٦٦٤ م — ٦٧٩ م) ، عمّ الاستقرار أرجاء البلاد العربية ، فغزا المسلمون (السِّند) و (القُسْطَنْطِينِيَّة) و (إفْرِيقِيَّة) والرُّوم ، وفتحوا جزيرة (أَرْواد) وفتوحات جديدة أخرى ، واستعادوا فتح المناطق التي سبق فتحها ثم انتقضت ، وذلك بفضل عودة الاستقرار والوحدة الى المسلمين .

وتولّى يزيد بن معاوية بعد وفاة أبيه سنة ستين الهجرية (٦٧٩ م) ، فبدأت الاضطرابات والفتن والثورات تنبعث ثانية في أرجاء البلاد الاسلاميّة وفي البلاد العربية قلب الدولة الاسلامية ، وفي سنة إحدى وستين الهجرية (٦٨٠ م) استشهد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في (كَرْبَلاء) [١٩٥] فغدر أهل (كابُل) ونكثوا وقتلوا المسلمين ، ووقعت العصبية القبلية بين الفاتحين في البلاد المفتوحة [١٩٦] ، مما أضعفهم وهوّن أمرهم بين الأعداء .

وفي سنة ثلاث وستين الهجرية (٦٨٢ م) كانت وقعة (الحَرَّة ،

(١٩١) ابن الأثير (٤١٧/٣) .
(١٩٢) ابن الأثير (٤٣٠/٣) .
(١٩٣) ابن الأثير (٤٣٦/٣-٤٣٧) .
(١٩٤) ابن الأثير (٤٣٨/٣) .
(١٩٥) انظر تفاصيل استشهاده في : ابن الأثير (٤٦/٤-٩٤) .
(١٩٦) انظر ابن الأثير (٩٧/٤-٩٨) .

في المدينة المنوّرة ، فأبيحت المدينة ثلاثة أيام يقتلون الناس ويأخذون الأموال والمتاع ، فتساقط القتلى والجرحى من سكانها بالآلاف (١٩٧) .

وفي سنة أربع وستين الهجرية (٦٨٣ م) مات يزيد بن معاوية ، وكان قد عهد بالأمر إلى ابنه معاوية بن يزيد ، فبقي في الخلافة شهرين أو أقلّ ، ثم مات ولم يستخلف أحداً (١٩٨) .

وفي هذه السنة بويع لعبدالله بن الزبير بمكة المكرمة ، وكان حصار الشّاميين قد اشتدّ علىابن الزبير ، فلما علموا بموت يزيد انسحبوا الى المدينة المنورة في طريقهم إلى دمشق (١٩٩) .

وغلبَ على الشّام الضّحّاك بن قيس الفِهْرِي (٢٠٠) ، فدعا إلى ابن الزبير ثم إلى نفسه وانحاز عنه مروان بن الحكم في بني أُميّة إلى أرض (حَوْرَان) ، فوافاهم عبيدالله بن زياد (٢٠١) من الكوفة على البرّية منهزماً من أهلها ، فقوي عزم مروان على طلب الخلافة . وجرت أمور كثيرة الى أن التقى مروان والضّحاك بـ (مَرْج راهِط) بنواحي دمشق شرقي (الغُوطة) ، فقُتِل الضّحاك وقتل معه نحو ثلاثة آلاف ، وانتصر مروان في سنة أربع وستين الهجرية (٢٠٢) (٦٨٣ م) .

وبويع مروان بن الحكم في هذه السنة ، فانتقضت (الرّيّ) (٢٠٣) ، وبايعت (خُراسان) والياً اختارته (٢٠٤) ، وثارت فتنة المختار في (الكوفة) فأرعدت الفتنة وأبرقت (٢٠٥) .

---

(١٩٧) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٤/١١١-١٢٢) .

(١٩٨) العبر (١/٦٩) .

(١٩٩) ابن الأثير (٤/١٣٠) .

(٢٠٠) انظر سيرته في : تهذيب ابن عساكر (٦/٧-١٢) .

(٢٠١) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح المشرق الاسلامي .

(٢٠٢) طبقات ابن سعد (٥/٢٢٦) .

(٢٠٣) ابن الأثير (٤/١٤٤) .

(٢٠٤) ابن الأثير (٤/١٥٤-١٥٨) .

(٢٠٥) ابن الأثير (٤/١٦٨-١٧٤) .

ومات مروان سنة خمس وستين الهجرية (٦٨٤ م) ، وتولى عبدالملك ابن مروان ، فكان على أرض الشّام ومصر ، وكان عبدالله بن الزبير [٢٠٦] على البلاد الاسلامية الأخرى .

وبدأ عبدالملك بن مروان يبذل قصارى جهده لاعادة الوحدة الشّاملة إلى بلاد المسلمين ، فكانت في سنة سبع وستين الهجرية (٦٩٥ م) وقعة (الخَازر) اندحر فيها أهل الشام ، وكانوا أربعين ألفاً ، وظفر بهم ابراهيم ابن الأشتر النّخَعِيّ ، وقتل أمراء الشّام ، وكان ابن الأشتر قائداً من قادة المختار [٢٠٧] .

وقضى مُصْعَب بن الزبيرعلى المختار ، وقضى عبدالملك على مُصْعَب ، وخرجت الخوارج بفارس والعراق وذلك سنة ثمان وستين الهجرية (٦٩٦م).

وفي هذه السنة ، وافى (عرَفات) في موسم الحجّ أربعة ألوية : لواء لمحمد بن الحَنفيّة وأصحابه ، ولواء لابن الزبير وأصحابه ، ولواء لبني أميّة ، ولواء لنَجْدَة الحَرُورِيّ [٢٠٨] ، وهكذا تفرّق المسلمون حتى في أداء شعائر الحج !

وفي سنة إحدى وسبعين الهجرية (٦٩٠ م) قضى عبدالملك بن مروان على مُصْعَب بن الزبير في العراق [٢٠٩] .

وفي سنة اثنتين وسبعين الهجرية (٦٩١ م) قضى عبدالملك على قسم من فتن الخوارج والخارجين عليه في الأمصار [٢١٠] .

وفي سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢ م) ، قضى الحجّاج بن يُوسُف

---

(٢٠٦) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (٢/٣٦-٩١) .
(٢٠٧) ابن الأثير (٢٦١/٤-٢٦٧) . (٢٠٨) ابن الأثير (٢٩٦/٤) .
(٢٠٩) انظر الفاصيل في : ابن الأثير (٣٢٣/٤-٣٣٦) .
(٢١٠) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٣٤٢/٤-٣٤٧) .

الثَّقَفيّ على عبدالله بن الزبير في الحجاز [٢١١] .

وهكذا قضى عبدالملك بن مروان من سنة خمس وستين الهجرية إلى سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٨٤ م — ٦٩٢ م) في صراع مرير لاستعادة الوحدة الشّاملة إلى الدولة الاسلاميّة ، سقط من جرائه مالا يعدّ ولا يحصى من القتلى ، وشغل العرب فيما بينهم بالاقتتال عن القتال في ساحات الجهاد ، فضعف شأن المسلمين في البلاد المفتوحة ، واجتاحتها الفتن والاضطرابات والفوضى .

لقد كانت سنة ثلاث وسبعين الهجرية سنة الوحدة الشّاملة للدولة الاسلامية.

والدرس الذي نتعلّمه ، أنّ من أسباب فتوح المسلمين وحدتهم بالاسلام ، وأنّ الفتوح تمتدّ شرقاً وغرباً في أيام الوحدة ، وتنحسر في كلّ مكان في أيام الفُرْقَة .

ولم تكن إرمينية أسعد حظّاً من البلاد المفتوحة الأخرى ، بل كانت مثلها في انتقاض أهلها واستقلالهم عن الدولة الاسلاميّة .

٢— جهاد محمد بن مروان :

لما كانت فتنة عبدالله بن الزبير ، انتقضت إرمينية [٢١٢] ، وفي سنة ثلاث وسبعين الهجريّة (٦٩٢ م) وهو عام الوحدة ، ولّى عبدالملك بن مروان أخاه محمد بن مروان على الجزيرة و إرمينية ، فغزا منها وأثخن في العدو [٢١٣] ، وقتل وسبى وغلب على البلاد [٢١٤] . وفي سنة أربع وسبعين غزا محمد بن مروان الصّائفة الرُّوم [٢١٥] ، كما غزا الروم سنة خمس وسبعين الهجرية (٦٩٤ م) الصّائفة أيضاً [٢١٦] .

وفي سنة ست وسبعين (٦٩٥ م) غزا محمد الروم من ناحية (مَلَطْيَة) [٢١٧]

---

(٢١١) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٣٤٨/٣-٣٥٩) .

(٢١٢) فتوح البلدان (٢٨٩) .

(٢١٣) ابن الأثير (٣٦١/٤) .

(٢١٤) فتوح البلدان (٢٨٩) .

(٢١٥) ابن الأثير (٣٧٣/٤) .

(٢١٦) ابن الأثير (٣٩١/٤) .

(٢١٧) ابن الأثير (٤١٨/٤) .

وفي سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠ م) غزا محمد إرمينية فهزمهم ، ولكنهم قتلوا وكيله عليها بعد أن صالحهم ، فغدروا به وقتلوه غدراً [٢١٨] .

وفي سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤ م) غزا محمد إرمينية فصَافَ فيها وشتى [٢١٩] .

وفي سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩ م) عزل الوليد بن عبدالملك عَمه محمد بن مروان عن إرمينية والجزيرة واستعمل عليها أخاه مَسْلَمَة بن عبدالملك [٢٢٠] .

لقد كان محمد بن مروان قائداً متميّزاً ، له شخصية قوّية نافذة ، وقد أعاد الهدوء والاستقرار إلى إرمينية ، وخافهُ أهلها [٢٢١] .

٣- جهاد مَسْلَمة بن عبدالملك [٢٢٢] :

أ - ولايته الأولى :

عزل الوليد بن عبدالملك عَمّهُ محمد بن مروان عن (الجزيرة) و(إرمينية) سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩ م) واستعمل عليها أخاه مَسْلَمَة [٢٢٣] . ولما أراد الوليد عزل عَمه ، لم يقدم أحدُ عليه إلاّ مَسْلَمَة [٢٢٤] .

وفي هذه السنة غزا مسلمة مدينة (باب الأبواب) ، وفتح مدائن وحصوناً ، ونصب عليها المجانيق [٢٢٥] .

وأمضى مسلمة السنوات التالية في غزو بلاد الرُّوم ، وفي سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣ م) غزا مسلمة مدينة (باب الأبواب) وفتحها

---

(٢١٨) ابن الأثير (٤/٤٧٦) .
(٢١٩) ابن الأثير (٤/٥١٤) .
(٢٢٠) ابن الأثير (٤/٥٥٥) .
(٢٢١) فتوح البلدان (٢٨٩) .
(٢٢٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح بلاد الروم .
(٢٢٣) ابن الأثير (٤/٥٥٥) .
(٢٢٤) ابن الأثير (٥/٧٠) .
(٢٢٥) الطبري (٦/٤٥٤) وابن الأثير (٤/٥٥٥) وابن خلدون (٣/١٤) والنجوم الزاهرة (١/٢٢٢) وتاريخ الاسلام (٤/٣٠٢) .

وخرّبها ، ثم بناها بعد ذلك[٢٢٦] بعشر سنين[٢٢٧] أو تسع سنين[٢٢٨] ، وقد انتقضت هده المدينة فأعادها للمسلمين مرة أخرى ،والظاهر أنها استعصت.

وغزا مسلمة بلاد الروم سنة ست وتسعين الهجرية(٧١٤ م)وسنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥ م) .

وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م – ٧١٧ م) عزل سليمان بن عبدالملك أخاه مسلمة وولاه قائداً عاماً لقوات المسلمين المعتزمة فتح القُسْطَنْطِيْنِيَة[٢٢٩] ، فسار على رأس جيشه نحو هدفه .

ب – ولايته الثانية :

وفي سنة سبع ومئة الهجريّة (٧٢٥ م) ، استعمل هشام بن عبدالملك أخاه مَسْلَمَة على إرمينية وأَذْرَبِيْجان خلفاً للجرّاح بن عبدالله الحَكَمِي[٢٣٠] فاستعمل مسلمةُ الحارث بن عمرو الطائيّ[٢٣١] ، فافتتح رستاقاً وقرى كثيرة ، وأثّر فيها أثراً حسناً[٢٣٢] .

وفي سنة ثمان ومئة الهجريّة (٧٢٦ م) ، حاصر الترك مدينة (وَرْثان)[٢٣٣] ورموها بالمنجنيق ، فقصدهم الحارث بن عمرو بأمر مَسْلَمَة وعبر نهر (الرسّ) بالقرب من (وَرْثان) ، والتقى بالترك وانتصر عليهم بعد أن كبّدهم خسائر فادحة بالأرواح[٢٣٤] .

---

(٢٢٦) البداية والنهاية (٣٢٨/٩) .
(٢٢٧) البداية والنهاية (١١٧/٩)والمعارف (٣٦٥)
(٢٢٨) البداية والنهاية (٣٢٨/٩) .
(٢٢٩) أبو الفدا (٢٠٠/١) والعبر (١١٦/١).
(٢٣٠) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي .
(٢٣١) انظر سيرته في : تهذيب ابن عساكر (٤٥٦/٣) .
(٢٣٢) ابن الأثير (١٣٧/٥–١٣٨) والعبر (١٣٠) وشذرات الذهب(١٣٤) وتاريخ الموصل (٢٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٠/٢) .
(٢٣٣) ورثان : بلد هو آخر حدود أذربيجان ، بينه وبين وادي الرس فرسخان،وبين ورثان وبيلقان سبعة فراسخ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤١٣/٨) .
(٢٣٤) تهذيب ابن عساكر (٤٥٦/٣) .

وفي سنة تسع ومئة الهجريّة (٧٢٧ م) ، غزا مسلمةُ الترك من ناحية (أَذْرَبِيْجان) ، فغنم وسبى وعاد سالماً [٢٣٥].

وفي سنة عشر ومئة الهجرية (٧٢٨ م) ، غزا مَسْلَمةُ التركَ في باب (اللان) ، فلقى خاقان [٢٣٦] في جموعه ، ونشب القتال بين الجانبين قريباً من شهر واحد ، وأصابهم مطرٌ شديد ، فانهزم خاقان وعاد مسلمة منتصراً [٢٣٧].

وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجريّة (٧٢٩ م) ، استعمل هشام بن عبدالملك الجرّاح بن عبدالله الحَكَمِيّ على إرمينية وأذربيجان وعزل أخاه مسلمة [٢٣٨].

ومن الراضح أن مسلمة وطّد أكناف إرمينية وأذربيجان وأحرزَ انتصارات باهرة على الخَزَر والترك ، فأدىّ واجبه على أحسن وجه ، ولم يبق مايسوِّغ بقاءه في منصبه بعيداً عن عاصمة الخلافة (دِمَشْق) ، وبخاصة فان وجوده في دمشق يفيد جميع الأقطار الاسلامية ولايقتصر على قطرين إسلاميين حسب . ولعل عزل مسلمة كان لحرص هشام على أن يبقى مسلمة إلى جانبه ، مستشاراً ناصحاً وقائداً لامعاً وإدارياً حازماً ، فاستأثر به لنفسه من أجل مصلحة الدولة الاسلامية كلها ، إذ لا يمكن الاستغناء عن كفاية مسلمة الذي أصبح قائد الدولة البارز غير منازع في كفايته وإخلاصه إلاّ

(٢٣٥) ابن الأثير (١٤٥/٥) وتاريخ الموصل (٢٩) وتاريخ الاسلام(٣٠٢/٤) وتاريخ خليفة ابن خياط (٣٥٢/٢) .

(٢٣٦) خاقان : لقب ملك الترك ، ومعناه : الملك .

(٢٣٧) ابن الأثير (١٥٥/٥). وكانت هذه الغزوات من غزوات توطيد سيطرة الدولة في البلاد المفتوحة ، واشاعة الأمن والاستقرار في (أذربيجان) و (إرمينية)الجبليتين ذات البرد القارس والسكان الجبليين الماهرين في الحروب الجبلية والمتميزين بالشجاعة والاقدام.

(٢٣٨) ابن الأثير (١٥٨/٥) وتاريخ الاسلام(٣٠٢/٤٣) والنجوم الزاهرة (٢٧٠/١) وابن خلدون (٢٩٩/٣) وتاريخ الموصل (٣٠) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٣/٢) .

لتولي مهمة جديدة هي أكبر من مهمّته الكبيرة والياً على إرمينية وأذربيجان . ومن المحتمل أن عزلهُ كان لأسباب قاهرة كالمرض مثلاً ، لأن هشام بن عبدالملك لايمكن أن يعزل أخاه مسلمة بدون رغبته إلاّ لأسباب قاهرة ، سكت المؤرخون عن ذكرها .

ولم يغز مسلمة سنة إحدى عشرة ومئة الهجريّة (٧٢٩ م) خلافاً لعادته التي التزم بها في الغزو كلّ سنة مرّة أو مرتين . وفي تلك السنة سارت الترك إلى (اذربيجان) فلقيهم الحارث بن عمرو فهزمهم [٢٣٩] ، مما يدلّ على أنّ مسلمة كان بعيداً عن ميدان القتال ، فقاد المعركة قائد ممن يعملون بامرته ، وهذا يدلّ على أنّ مسلمة كان في (دمشق) لاسباب غير عاديّة ، فأراد هشام أن يولّي غيره دون أن يعزله لريبة أو تقصير .

ج – ولايته الثالثة :

استُشهد الجرّاح بن عبدالله الحكميّ سنة اثنتي عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٠ م) ، فاضطربت إرمينية وأذربيجان ناراً ، وأصبح الموقف العسكريّ حرجاً مما يهدِّد البلاد المفتوحة بأفدح الأخطار .

وأعاد هشام مَسْلَمَة إلى إرمينية سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية [٢٤٠] (٧٣٠ م) ، ليتدارك الموقف المتردي فيها ، بعد أن استفحل أمر الخَزَر والترك فأبادوا قائد المسلمين وجيشه [٢٤١] .

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣١ م)ضمّ هشام إلى مسلمة أذربيجان أيضاً [٢٤٢] ، وانطلق مسلمة إلى إرمينية سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية مسرعاً ، لاستعادة هيبة الدولة وإعادة الأمن ، فليس مسلمة من الذين يسكتون على استشهاد قائد من قادة المسلمين وإفناء جيشه دون أن يعيد المعتدين إلى صوابهم .

(٢٣٩) ابن الأثير (١٥٨/٥) .
(٢٤٠) فتوح البلدان (٢٩٠) .
(٢٤١) فتوح البلدان (٢٩٠) .
(٢٤٢) تاريخ خليفة بن خياط (٣٥٨/٢).

وكان على مقدمة مسلمة سعيد بن عمرو بن أسود الحَرَشِي[٢٤٣] ، فواقع سعيد الخزَر وقد حاصروا (وَرْثان) فكشفهم عنها وهزمهم ، وانسحب الخزر إلى (مِيمَذ) من عمل أذْرَبيْجان ، فلما تهيأ لقتالهم أتاه كتاب مسلمة يلومه على قتاله الخزر قبل قدومه ، ويعلمه أنه قد عزاله وولى قيادة عسكره غيره . وسلّم سعيدٌ القيادَة ، فأخذه رسول مسلمة وحبسه وأخذه مقيداً إلى (بَرْذَعة) وحُبس في سجنها ، وانصرف الخزر ، فأتبعهم مسلمة وكتب بذلك إلى هشام ، فكتب هشام إلى مسلمة :

أَتَتْرُكهُمْ بِمِيمذ قد تَراهُم وتَطْلُبُهم بمنقطع التراب !

وأمر هشام باطلاق سراح سعيد من السجن .

وقد كان الخزر بميمذ ، فلم يناجزهم مسلمة أولاً ، بل قصد مدينة (باب الأبواب) ثم عبرها ، فتبعه[٢٤٤] الخزر . وكان على مسلمة أن يبدأ بها ، حتى لايعرِّضَ خطوط مواصلات جيش المسلمين للخطر ، ولكن حصل العكس ، مما أدّى إلى الاختلاف بين مسلمة وسعيد من جهة وبين مسلمة وهشام من جهة أخرى ، وكان سعيد وهشام على حق ، وكان مسلمة على خطأ .

وصالح مسلمة أهل (خَيزان) وأمر بحصنها فهدم[٢٤٥] ، مما يدل على تكرار انتقاضها وشدّة مقاومتها للفاتحين .

وسالم مسلمة ملوك الجبال : جبال القفقاس ، وسار إليه صاحب (مَسْقَط)[٢٤٦] .

وهاجم مسلمة مدينة (باب الأبواب) ، وكان في قلعتها ألف أهل بيت من الخزَر ، فحاصرهم ورماهم بقنابل الحجارة والحديد ، فلم ينتفع بهذا القصف ، وبقيت المدينة ثابتة .

---

(٢٤٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي .
(٢٤٤) فتوح البلدان (٢٩٠) .
(٢٤٥) فتوح البلدان (٢٩١) .
(٢٤٦) فتوح البلدان (٢٩١) .

وعمد مسلمة إلى العَيْن التي كان انو شروان أجرى منها الماء إلى صهريج المدينة ، فذبح البقر والغنم ، وألقى فرثها وفضلاتها الأخرى في الصهريج ، فلم يمكث ماؤهم إلا ليلة حتى دوّد وأنتن وفسد ، فلما جنّ عليهم الليل هربوا وأخلوا القلعة [٢٤٧] ، وهكذا استعاد مسلمة مدينة (باب الأبواب) بعد حصار طويل وقتال مرير .

ووطّد مسلمة العزم على ترصين مدينة باب الأبواب لجعلها قاعدة متقدمة للمسلمين ، فأسكن المدينة أربعة وعشرين ألفاً من أهل الشّام على العطاء ، فأهل الباب لايدعون عاملاً يدخل مدينتهم إلاّ معه مال يفرّقه بينهم [٢٤٨] .

وبنى مسلمة في مدينة باب الأبواب هُرْياً للطعام ، وهُرْياً للشّعير ، وخزانة للسّلاح ، وأمر بتطهير صهريج المدينة ، ورمّ المدينة وشرّفها [٢٤٩] . وهكذا جعل مسلمة من هذه المدينة قاعدة أمينة متقدّمة في محاولة لعدم انتقاضها مرة أخرى ، ولكي ينطلق منها المسلمون شمالاً لحماية البلاد المفتوحة ولاضافة فتح جديد .

وقد فرّ الخزر من مدينة باب الأبواب باتّجاه منطقة باب (اللان) ، فطاردهم مسلمة إلى هناك للقضاء عليهم وإجبار قواتهم الضّاربة على الاستسلام .

ولقي مسلمةُ (خاقان) [٢٥٠] في جموعه ، فنشب بين الجانبين قتال مرير استغرق قريباً من شهر ، وأصابهم مطر شديد ، فانهزمَ خاقان في السّابع من جمادى الآخرة من هذه السنة .

وهذه الغزوة تسمى غزوة الطّين ، وكانت ملحمة عظيمة ، لهطول الأمطار الغزيرة التي جعلت ساحة المعركة تغصّ بالطّين [٢٥١] .

---

(٢٤٧) فتوح البلدان (٢٩١) . (٢٤٨) فتوح البلدان (٢٩١) .

(٢٤٩) فتوح البلدان (٢٩١) .

(٢٥٠) الخاقان : لقب ملك الترك ، ومعناه : الملك .

(٢٥١) النجوم الزاهرة (٢٦٧/١) وتاريخ الاسلام (٣٠٤/٤) .

لقد قضى مسلمة هذه السنة صيفاً وشتاءً غازياً ، وكان من عادة المسلمين أن يغزوا الصّائفة ويستقرّوا في الشتاء ، ولكن سير الحوادث في تلك السنة أجبره على ألاّ يُريح ولا يستريح ، للقضاء على مقاومة الخزر الاشدّاء الاقوياء المتمرّسين على الحروب الجبليّة .

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣١ م) ، فرّق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان ، ففتحت مدائن وحصوناً على يديه ، وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ، ودانَ له مَنْ وراء جبال (بَلَنْجر) من بلاد الخزر ، وقتل ابن خاقان [٢٥٢] ، فاجتمعت تلك الأمم جميعها : الخزر والترك وغيرهم عليه في جمع لايعلم عددهم إلاّ الله . وكان مسلمة قد جاوز مدينة (بَلَنْجَر) ، فلما بلغه خبرهم ، أمر أصحابه فأوقدوا النيران ، ثم ترك خيامهم وأثقالهم ، وعاد وعسكرهُ جريدة [٢٥٣] ، وقدّم الضعفاء وأخّر الشجعان ، وطووا المراحل : كلّ مرحلتين في مرحلة واحدة ، حتى وصل إلى (الباب) في آخر رمق [٢٥٤] ، فأكمل بناء الباب وحصّنها [٢٥٥] .

وفي سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٢ م) ، استعمل هشام بن عبدالملك مروان بن محمد بن مروان بن الحَكَم وهو ابن عَمه على (الجزيرة) و (أذربيجان) و (إرمينية) وعزل أخاه مسلمة [٢٥٦] ، فعاد أدراجه إلى دمشق .

ولم يكن الموقف العسكريّ بصالح المسلمين عند عزل مسلمة ، وما مثل مسلمة يرضى بأن يتخلىّ عن القيادة ، والبلاد التي بامرته ورجاله والمسلمون في موقف عصيب .

---

(٢٥٢) في المعارف (٣٦٥) : انه قتل ملك الترك .
(٢٥٣) الجريدة : خيل لا رجالة فيها ، ويقصد : أن الجيش كان مسرعاً كسرعة الخيالة .
(٢٥٤) ابن الأثير (١٧٣/٥-١٧٤) .
(٢٥٥) المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ ابن خياط (٣٥٩/٢) .
(٢٥٦) ابن الأثير (١٧٧/٥) والنجوم الزاهرة (٢٧٣/١) وابن خلدون (٣٠٠/٣) .

ولم يكن هشام ليعزل مسلمة الذي كان الرجل الثاني في الدولة بدون مرافقة مسلمة المسبّقة ، وليس من المعقول أن يُعْزَل مسلمة لقلة كفايته ، لأنّ كفايته فوق الشبهات ، ولأنّ هشام بن عبدالملك ولاّهُ لكفايته المتميزة ، ليعيد سيطرة الدولة على تلك الأصقاع النائية .

ومما يلفت النّظر ، أنّ مسلمة لم يَغْزُ ولم يتول ولاية أو قيادة منذ سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٢ م) ، حتى توفاه الله سنة عشرين ومئة الهجرية (٧٣٧ م) أو إحدى وعشرين ومئة الهجرية (٧٢٨ م) .

وغيابه عن تحمّل أعباء الجهاد ، وهو مَنْ هو كفاية وحرصاً على النهوض بهذا الواجب ، ليس طبيعياً ، بالرغم من ثقة هشام به ثقة مطلقة ، وبالرغم من حاجة الدولة إلى أمثاله من القادة الأفذاذ في مثل تلك الظروف الحرجة .

وإذا كان بالامكان أن يتخلى مسلمة عن تولي المناصب الاداريّة ، فليس بالامكان أن يتخلى عن تولي المناصب القياديّة ، وهو الذي يؤثر أن يكون غازياً لا والياً ، فقد حمل السِّلاح قائداً وهو لم يتجاوز العشرين من عمره ، وقضى كلّ سنيّ حياته في ساحات الجهاد قائداً حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجرية ، فمن المعقول أنه تخلىّ عن تولي المناصب القياديّة لأسباب خارجة عن إرادته .

والذي يبدو أنّ تخليه عن تولي القيادة ، لم يكن بارادته ولا بارادة الخليفة هشام ، بل تخلّى عنها مُكرها ، وذلك لاصابته بمرض أقعده عن تولي هوايته المفضّلة ، ومن المعروف أنّ من مزايا القائد المتميِّز تمتّعه بالقابلية البدنيّة المتميِّزة ، ليستطيع تحمّل أعباء الجهاد ، وما أثقلها من أعباء .

وإلاّ فليس هناك أيّ سبب آخر يسوِّغ ابتعاده عن ساحات الجهاد غير المرض الذي أقعده عن قيادة الجيوش بكفاية وقوّة وأمانة .

٤ ـ جهاد الجراح بن عبدالله الحكمي [٢٥٧]

أ : في سنة أربع ومئة الهجرية (٧٢٢) م ، ولّى يزيدُ بن عبدالملك الجرّاح بن عبدالله الحَكَمِيّ إرمينية . [٢٥٨]

وسبب تولية الجرّاح ، أنّ المسلمين في سنة ثلاث ومئة الهجرّية (٧٢١ م) ، دخلوا بلاد الخَزَر (القفقاس) من إرمينية وعليهم ثُبَيْت النّهْرانِيّ [٢٥٩] ، فاجتمعت الخزر في جمع كثير ، وأعانهم الترك من مختلف أنواعهم ، فلقوا المسلمين في موضع يُعرف بـ (مَرْج الحجارة) . ونشب القتال بين الجانبين بشدّة وعُنف ، فقُتل من المسلمين بشر كثير [٢٦٠] واستولى الخزر على معسكرهم ، وغنموا جميع ما فيه [٢٦١] ، وذلك في عزّ الشتاء من شهر رمضان من سنة ثلاث ومئة الهجرية [٢٦٢] (٧٢١ م) .

وهكذا تجمّعت على المسلمين حُشود الخزر الضخمة وحلفاؤهم ، وبرد الشتاء القارس في عنفوانه ببلاد جبلية باردة جداً ، فأدّى هذان العلامان إلى هزيمتهم .

وأقبل المنهزمون إلى الشّام ، على يزيد بن عبدالملك وفيهم ثُبَيْت ، فوبّخَهم يزيد ، فقال ثُبَيْت : « ياأمير المؤمنين ! ماجبنتُ ولا نكبتُ عن لقاء العدو ، ولقد لصقتِ الخيل بالخيل والرجل بالرجل ، ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي ، وضاربت حتى انقطع سيفي ، غير أنّ اللهَ سبحانهُ وتعالى

---

(٢٥٧) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي .

(٢٥٨) ابن الأثير (١١١/٥) وتاريخ خليفة ابن خياط (٣٣٧/١) والعبر (١٢٦/١)وتاريخ الموصل (١٧) .

(٢٥٩) في تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٦/١) : أن قائد المسلمين كان معلق بن صفار البهراني

(٢٦٠) في تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٦/١) : فأصيب من المسلمين جميعاً .

(٢٦١) ابن الأثير (١١٥/٥) .

(٢٦٢) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٦/١) .

يفعلُ مايُريد »[٢٦٣] .

ولما تمّت الهزيمة على المسلمين ، طمع الخزر في البلاد ، فجمعوا وحشدوا ، فاستعمل يزيدُ بن عبدالملك على إرمينية وأَذْرَبِيْجان الجرّاحَ ابن عبدالله الحَكَمِيّ ، وأمدّهُ بجيش كثيف ، وأمرهُ أن يغزو الخزر وغيرهم من الأعداء ، وقَصْدَهم في عقر دارهم . وتسامع الخزر وحلفاؤهم بقدوم المسلمين ، فلجأوا إلى مدينة (باب الأبواب) . ووصل الجرّاح إلى مدينة (بَرْذَعَة)[٢٦٤] ، فأقام بها حتى استراح هو ومَنْ معهُ . وتوجّه نحو الخزر ، فعبر نهر (الكُرّ)[٢٦٥] فسمع أن بعض مَنْ كان معهُ في جيشه من أهل الجبال (جبال القفقاس) قد كاتب ملك الخزر يخبرهُ بمسير الجرّاح إليه ، فأمر مناديه فنادى بالناس : « إنّ الأمير مقيم ههنا مدّة أيام ، فاستكثروا من الميرة » ، فكتب ذلك الرجل إلى ملك الخزر يخبرهُ أنّ الجرّاح مقيم ، ويشير عليه بترك الحركة لئلا يطمع المسلمون فيه[٢٦٦] .

ولما كان اللّيل ، أمر الجرّاح بالرّحيل ، فسار مُجِدّاً حتى انتهى إلى مدينة (باب الأبواب) ، فلم ير الخزر ، ويبدو أنهم انسحبوا بسرعة من المدينة إلى منطقة حشودهم ، فدخل المسلمون المدينة ، وبثّ الجرّاح سراياهُ على مايجاور المدينة ، فغنموا وعادوا في الغد .

وسار الخزر وحلفاؤهم إلى المسلمين بقيادة ابن ملكهم (ابن خاقان) ، فالتقوا عند نهر (الرّان)[٢٦٧] ، فنشب القتال الشديد بين الجانبين ، وحرّض

---

(٢٦٣) ابن الأثير (١١١/٥) .

(٢٦٤) برذعة : مدينة من مدن إرمينية الأولى ، انظر التفصيل في معجم البلدان (١١٩/٢-١٢٢)

(٢٦٥) نهر الكر : نهر ينبع من كورة جرزان(جورجيا) من جبال (جلدير) ويمر بمدينة تفليس ، ويبلغ طوله نحو (٩٤٠ كم) ، انظر ماجاء عن هذا النهر في : معجم البلدان (٢٣٧/٧-٢٣٨) .

(٢٦٦) ابن الأثير (١١١/٥) .

(٢٦٧) نهر الران : هو نهر (أران) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢١٣/٣-٢١٤)، ومنطقة أران من إرمينية الأولى .

الجرّاح أصحابه ، فظفر المسلمون بالخزر وهزموهم ، فطاردهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، فقُتل منهم خلق كثير . وغنم المسلمون جميع مامعهم ، وفُتح حصن (الحُصَيْن) سلماً ، ونقل أهلهُ عنه .

وسار الجرّاح بالمسلمين إلى مدينة (يَرْغوا)[٢٦٨] ، فأقام عليها ستة أيام ، وهو مجد في قتال أهلها ، فطلبوا الأمان ، فأمّنهم ونقلهم منها[٢٦٩] .

وسار الجرّاح إلى (بَلَنْجر) وهو حصن مشهور من حصونهم ، وكان أهل الحصن قد جمعوا ثلاثمائة عجلة ، شدّوا بعضها إلى بعض وجعلوها حول حصنهم ليحتموا بها ، وتمنع المسلمين من الوصول إلى الحصن ، وكانت تلك العجل أشدّ شيء على لمسلمين في قتالهم[٢٧٠] .

وخرج رجل من المسلمين فقال : « مَنْ يَشْري الله نفسهُ ؟ » ، فأجابته جماعة مابلغت عدّتهم ثلاثين رجلاً ، فكسروا جفون سيوفهم ، وشدّوا على العجل ، وأجلوا الرجال عنها ، وأخذوا عجلة منها[٢٧١] .

وحدّ الخزر بقتالهم ، ورموا من النشاب ما كان يحجب الشّمس ، فلم يتراجع مغاوير المسلمين حتى وصلوا إلى العَجَل ، وتعلقوا ببعضها ، وقطعوا الحبل الذي يمسكها ، وجذبوها ، فانحدرت ، وتبعها سائر العَجَل ، لأنّ بعضها كان مشدوداً إلى بعض ، وانحدر الجميع إلى المسلمين[٢٧٢] .

والتحم القتال واشتدّ . وعظم الأمر على الجميع ، حتى بلغت القلوب الحناجر ، فانهزم الخزر وحلفاؤهم ، واستولى المسلمون على الحصن عَنْوَةً ،

---

(٢٦٨) يرغوا : لم أجد لهذه المدينة ذكراً في معجم البلدان ، وقد وردت في كتاب : تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٧/١) : يزعوا .

(٢٦٩) ابن الأثير (١١٢/٥) .

(٢٧٠) ابن الأثير (٢/٥جـ ١) .

(٢٧١) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٧/١) .

(٢٧٢) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٧/١) .

(٢٧٣) كان فتح بلنجر يوم الأحد لثلاث خلون من ربيع الأول ، انظر خليفة بن خياط (٣٣٧/١) .

وأصابوا جميع مافيه غنائم للمسلمين ، فأصاب الفارس ثلاثمائة دينار ، وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً ، وكانت تلك المعركة في ربيع الأول [٢٧٣] من سنة أربع ومئة الهجريّة [٢٧٤] .

وسار الجرّاح عن (بَلَنْجَر) بعد أن أسر أولاد صاحب (بَلَنْجَر) وأهله ، فبعث الجرّاح إليه وأحضره وردّ أمواله وأهله وحصنه إليه ، وجعله عيناً للمسلمين يخبرهم بما يفعله الخزر وحلفاؤهم .

ونزل المسلمون على حصن (الوبندر) [٢٧٥] وبه نحو أربعين ألف بيت من الترك ، فصالحوا الجرّاح على مال يؤدّونه . [٢٧٦]

وسار الجرّاح إلى (وَرْثان) [٢٧٧] ، فأدركه الشتاء ، فأقام المسلمون فيها .

وكتب الجرّاح إلى يزيد بن عبدالملك يخبره بما فتح الله عليه ، وأن أهل تلك البلاد تجمّعوا وأخذوا الطرق على المسلمين ، ويسأله المدد .

ووعد يزيد أن يبعث بالمدد إلى الجرّاح ، ولكنّ الأجل أدركه قبل قبل أن يبعث بما وعد به ، فأرسل هشام بن عبدالملك إلى الجرّاح المدد ، وأقرّه على عمله . [٢٧٨]

ب : وفي سنة خمس ومئة الهجرّية (٧٢٣ م) ، زحف الترك نحو إرمينية وزحف الجرّاح لصدّ زحف الترك ، فالتقى الجانبان في موضع يقال

---

(٢٧٤) ابن الأثير (١١٢/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٣٧/١) .

(٢٧٥) ونبدر : لم أجد لهذا الحصن ذكراً في كتاب : معجم البلدان ، ويبدو من سير القتال أنه يقع في منطقة أران .

(٢٧٦) ابن الأثير (١١٢/٥) .

(٢٧٧) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٨/١) ، وفي ابن الأثير (١١٣/٥) : أنه عاد الى رستاق (ملي) .

(٢٧٨) ابن الأثير (١١٣/٥) .

له : (الزمّ) ، [٢٧٩] بين نهري (الكُرّ) و (الرَّسّ) من إرمينية في شهر رمضان من هذه السنة ، واستمرّ القتال أياماً ، فانهزم الترك . [٢٨٠]

والظّاهر أنّ المدد الذي وعد الخليفة هشام بن عبدالملك بارساله إلى إرمينية قد وصل إلى الجرّاح في الوقت المناسب ، فاستأنف المسلمون استعادة ما انتقض من إرمينية ، فغزا الجرّاح (اللان) [٢٨١] ، وهي بلاد واسعة غنيّة ، فاستعاد الجرّاح فتحها وفتح مدائن وحصوناً وراء (بلنجر) ، وأصاب غنائم كثيرة [٢٨٢]

ج : وفي سنة ست ومئة الهجرية (٧٢٤ م) ، غزا الجرّاح بلاد (اللان) ، فصالح أهلها وأدّوا الجزية [٢٨٣] ، بعد أن أوغل في بلاد الخزر ، وهو أول مَنْ قفل من باب (اللان) في إرمينية [٢٨٤] .

د : وفي سنة سبع ومئة الهجريّة (٧٢٥ م) ، عزل هشام بن عبدالملك الجرّاح عن إرمينية وأذربيجان وولاّها أخاه مسلمة بن عبدالملك [٢٨٥] .

ولم يذكر المؤرخون سبباً لعزل الجرّاح عن إرمينية وأذربيجان ، لأنّ الجرّاح لم يقصّر في واجبه قائداً وإدارياً ، كما إنّ نزاهته كانت فوق الشبهات ويبدو أنّ هشام بن عبدالملك أراد أن يستفيد من كفاية أخيه مسلمة القياديّة في منطقة نائية جبلية اشتدّ فيها القتال وكثرت الخسائر ، فعزل الجرّاح واستعمل أخاه .

---

(٢٧٩) الزم : بليدة على طريق جيحون من ترمذ وآمل ، انظر معجم البلدان (٤٠٥/٤٥) ، وليست هي المقصودة هنا ، لبعدها عن ساحة القتال ، بل هي موضع بين نهري (الكر) و(الرس) في إرمينية .

(٢٨٠) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٩/١) .

(٢٨١) اللان : بلاد واسعة في طرف إرمينية قرب مدينة (باب الأبواب) مجاورة للخزر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٤/٥) .

(٢٨٢) ابن الأثير (١٢٥/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٣٩/١) والبداية والنهاية (٢٣١/٩).

(٢٨٣) ابن الأثير (١٣٤/٥) .

(٢٨٤) تاريخ خليفة بن خياط (٣٤٩/٢) .

(٢٨٥) ابن الأثير (١٣٧/٥) .

هـ : وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجريّة (٧٢٩ م) ، استعمل هشامُ بن عبدالملك الجرّاح ثانية على إرمينية وأذربيجان ، وعزل أخاه مسلمة بن عبدالملك [٢٨٦] .

ودخل الجرّاح بلاد الخزر من ناحية (تَفْلِيس) ، واستعاد فتح مدينة من مدن الخزر هي مدينة (البيضاء) [٢٨٧] ، ثم انصرف سالما [٢٨٨] .

وجمعت الخزر جموعاً كثيرة بقيادة ابن خاقان ، فدخلوا إرمينية ، ثمّ سار ابن خاقان ، فحاصر (أَرْدَبِيل) [٢٨٩] .

و : وفي سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠ م) ، زحف الجرّاح من (بَرْذَعَة) [٢٩٠] ، وكان الخزر والترك قد حشدوا جموعهم من ناحية (اللان) . وعسكر الجرّاح ومَنْ معه بمرج (أرْدَبِيل) ، وقاتل جموع الخزر والترك أشدّ قتال رآه الناس ، فصبر الفريقان صبراً جميلا [٢٩١] .

وتكاثر الخَزَر والتُّرك على المسلمين ، فاستُشهد الجرّاح لثمانٍ بقين من رمضان سنة اثنتي عشرة ومئة الهجريّة ، وغلبت الخَزَر على أذربيجان وأوغلوا في البلاد حتى قاربوا مدينة (المَوْصِل) ، وعظم الخطب على المسلمين [٢٩٢] ، وتكبدوا خسائر فادحة بالأرواح والأموال.

---

(٢٨٦) ابن الأثير (١٥٨/٢) وتاريخ الاسلام (٢٠٢/٤) والنجوم الزاهرة (٢٧٠/١) وابن خلدون (٢٩٩/٣) .

(٢٨٧) البيضاء : مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٣٥/٢)

(٢٨٨) ابن الأثير (١٥٨/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٤/٢) .

(٢٨٩) تاريخ خليفة ابن خياط (٣٥٤/٢-٣٥٥) .

(٢٩٠) تاريخ خليفة بن خياط (٣٥٥/٢) .

(٢٩١) ابن الأثير (١٥٩/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٦/٢) .

(٢٩٢) ابن الأثير (١٥٩/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٦/٢) .

٦ : جهاد سعيد بن عمرو الحرشي

لما بلغ هُشام بن عبدالملك خبر استشهاد الجرّاح بن عبدالله الحَكَمِيّ ، دعا سعيداً الحَرَشِيّ ، فقال له : « بلغني أنّ الجرّاح قد انحاز عن المشركين! » قال : « كلاّ يا أميرَ المؤمنين ! الجرّاح أعرف بالله من أن ينهزم ، ولكنه قُتل» قال : « فما رأيك ؟ » ، قال :«تبعثني على أربعين دابّة من دوّاب البريد ، ثمّ تبعث إلي كلّ يوم أربعين رجلاً ، ثمّ اكتبْ إلى أُمراء الأجناد يوافوني » ، ففعل ذلك هشام [٢٩٣] وولاّه مقدّمة مَسْلَمَة بن عبدالملك [٢٩٤] الذي ولاّه إرْمِينِيَة وأذْرَبِيجان [٢٩٥] .

وسار الحَرَشِيّ ، فكان لا يمرّ بمدينة إلاّ ويستنهض أهلها ، فيجيبه مَن يريد الجهاد في سبيل الله .

ووصل الى مدينة (أَرْزَن)[٢٩٦] ، فلقيه جماعة من أصحاب الجرّاح وبكوا وبكى ابكائهم ، ففرّق بينهم نفقة وردّهم معه .

ووصل الحَرَشِيّ على رأس المقدّمة التي كانت مؤلفة من جيش كامل- وإنما سميت مقدّمة لأن الحَرَشِيّ انطلق بسرعة قبل مَسْلَمَة – وصل الى (خِلاط) ،[٢٩٧] وفتح الحصون والقلاع شيئاً بعد شيء ، إلى أن وصل إلى (بَرْذَعَة)[٢٩٨] بعد فتح (خِلاط) عَنْوَة .

ونزل (بَرْذَعة) ، وكان ابنُ خاقان يومئذ بأذربيجان يغير وينهب ويسبي

(٢٩٣) ابن الأثير (٥/١٥٩–١٦٠)،وانظر الطبري (٧/٧٠) وتاريخ خليفة بن خياط(٢/٣٦٥)

(٢٩٤) فتوح البلدان (٢٩٠) .

(٢٩٥) فتوح البلدان (٢٩٠) .

(٢٩٦) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط ، ولها قلعة حصينة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/١٩٠–١٩١) .

(٢٩٧) خلاط : مدينة مشهورة ، وهي قصبة إرمينية الرابعة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٤٥٣) .

(٢٩٨) برذعة : مدينة كبيرة جداً في ارمينية ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/١١٩–١٢٢)

ويقتل وهو محاصر مدينة (وَرْثان) (٢٩٩) ، فخاف الحَرَشِيّ أن يملكها، فأرسل بعض أصحابه إلى أهل (وَرْثان) سِرّاً يعرِّفهم بوصوله ويأمرهم بالصّبر ؛ فسار الرّسول و لقيه بعض الخَزَر ، فأخذوه وسألوه عن حاله ،فأخبرهم وصدقهم ! وقال الخَزَر له : إنْ فعلتَ ما نأمركَ به ، أحسنّا إليك وأطلقناك، وإلاّ قتلناك . قال : « فما الذي تريدون ؟ » ، قالوا : تقول لأهل (وَرْثَان): إنّكم ليس لكم مدد ولا مَنْ يكشف ما بكم ، وتأمرهم بتسليم البلد إلينا . . . فأجابهم إلى ذلك .

وقارب الرَّجلُ المسلمُ المدينة ، فوقف بحيث يسمع أهلها كلامه، والخَزَر يترصّدونه ويسمعون كلامه ، فقال لأهل (وَرْثَان) : « أتعرفوني ؟ » ،قالوا : نعم ، أنت فلان ! قال : « فانّ الحَرَشِيّ قد وصل إلى مكانه كذا في عساكر كثيرة ، وهو يأمركم بحفظ البلد والصّبر، وفي هذين اليومين يصل إليكم » ، فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتّهليل .

وقتلت الخَزَر ذلك الرَّجل ، ثمّ رحلوا عن مدينة (وَرْثان) ، فوصلها الحَرَشِيّ في العساكر وليس فيها أحد من الخزر .

وارتحل الحَرَشِيّ يطلب الخَزَر في (أَرْدَبِيْل) (٣٠٠) ، فانسحب الخزر منها .

ونزل الحَرَشِيّ (باجَرْوَان) (٣٠١) ، فجاءه مَنْ يخبره أنّ الخَزَر في عشرة آلاف ومعهم خمسة آلاف من أهل بيت من المسلمين أسارى وسبايا ، وقد

---

(٢٩٩) ورثان : بلد هو آخر حدود أذربيجان ، بينه وبين نهر (الرس) فرسخان ، وبين ورثان وبيلقان سبعة فراسخ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٤١٣-٤١٤) .

(٣٠٠) أردبيل : من أشهر مدن أذربيجان ، وكانت قبل الفتح الاسلامي قصبة أذربيجان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/١٨٢-١٨٤) .

(٣٠١) باجروان : مدينة من نواحي (باب الأبواب) قرب مدينة (سروان) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٤) .

نزلوا على بُعْدِ أربعة فراسخ من مكانه الذي هو فيه .

وسار الحَرَشِي ليلاً ، فوافى الخَزَر آخر اللّيل وهم نيام ، ففرّق أصحابه في أربع جهات ، وكبّس الخَزَرَ مع الفجر ، ووضع المسلمون فيهم السّيف. فما بزغت الشمس حتى أُبِيْدَ الخَزَرُ ، وحتى أصبح أسرى المسلمين وسباياهم أحراراً ، فأخذهم الحَرَشِي معه إلى (باجَرْوان) .

ولم يكد يستقرّ به المقام في (باجَرْوان) إلاّ أتاه مَنْ يخبره بأنّ الخَزَر ومعهم أموال المسلمين وحُرَم الجرّاح وأولاده في مكان قريب .

وأسرع الحَرَشِيّ إلى هدفه الجديد ، فلم يشعر الخَزَر إلاّ والمسلمون معهم ، فوضعوا فيهم السّيف وقتلوا كيف شاؤوا ، ولم يفلت من الخَزَر إلاّ الشّريد ، واستنقذ المسلمون مَن معهم من المسلمين والمسلمات الأسرى والسبايا ، وغنموا أموالهم ، وأخذوا أولاد الجرّاح وحُرَمه وأكرموهم وأحسنوا إليهم ، وحملوا الجميع إلى (باجَرْوان) أيضاً .

وبلغ ما فعله الحَرَشِيُّ بعساكر الخَزَر ابنَ ملكهم ، فوبّخ عساكره وذمّهم ونسبهم إلى العجز والوَهَن ، فحرّض بعضهم بعضاً ، وأشاروا عليه بجمع أصحابه والعود إلى قتال المسلمين .

وجمع ابنُ ملك الخَزَر أصحابه من نواحي أذربيجان ، فاجتمع معه جيش كثيف .

وسار الحَرَشِيّ إلى جموع الخَزَر ، فالتقى المسلمون بالخزر في أرض (بَرْزَنْد)[٣٠٢] ، فنشب القتال بين الجانبين بشدّة وعنف . وانحاز المسلمون وقتاً يسيراً ، وتصدّعت صفوفهم ، ولكن الحَرَشِيّ حرّضهم على القتال وأمرهم بالصّبر ، فعادوا إلى القتال وصدقوهم الحملة .

---

(٣٠٢) برزند : بلدة من نواحي تفليس من أعمال جرزان من إرمينية الأولى ، بينها وبين أردبيل خمسة عشر فرسخاً ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٢٤/٢) .

واستغاث مَنْ مع الخزَر من أسارى المسلمين ، ونادوا بالتكبير والتهليل والدعاء ، فتصاعد استقتال المسلمين ، ولم يبق أحد إلاّ بكى ابكاء الأسرى .

واشتدّت حملة المسلمين على الخزَر ، فولّوا الأدبار منهزمين ، فطاردهم المسلمون حتى بلغوا بهم نهر (الرَّس)(٣٠٣) ، ثمّ عادوا عنهم بعد أن أطلقوا أسرى المسلمين وسباياهم ، وغنموا أموال الخزَر ،وساروا عائدين أدراجهم إلى قاعدتهم المتقدّمة : (باجرْوان) .

وجمع ابن ملك الخزَر مَنْ لحق به من عساكره ، وكرّ راجعاً إلى المسلمين ، فنزل على نهر (البَيْلَقَان) (٣٠٤) ، فالتقى الخزَر بالمسلمين هناك .

وحمل المسلمون على الخزر حملة صادقة، في منطقة نهر (البَيْلَقَان) ، فتضعضعت صفوف الخزَر . وتتابعت حملات المسلمين ، فصبر الخزَر صبراً عظيماً،ثمّ كانت الهزيمة عليهم ، فولّوا الأدبار منهزمين ، وكان مَنْ غرق في النهر منهم أكثر ممّن قُتِل .

وجمع الحَرَشِيّ الغنائم ، وعاد إلى (باجرْوان) فقسمها (٣٠٥) .

وقَدِم مَسْلَمَةُ بن عبد الملك إرمينية ، والخزَر قد انسحبوا إلى (مِيمَذ)(٣٠٦) ، والحَرَشِيّ يستعدّ لقتالهم ، فأتاه كتاب مَسْلَمَة يلومه على قتاله الخزَر قبل قدومه ، ويُعْلِمُه أنه قد عزَاه وولّى قيادة جيشه غيرَه .

وسلّم الحَرَشِي القيادة لخلفه ، فأخذه رسولُ مَسْلَمَة وقيّده وحبسه في سجن (بَرْذَعَة) .

---

(٣٠٣) نهر الرس : نهر مخرجه من (قاليقلا) ويمر بأران ثم يمر بورثان ثم يمر بالمجمع فيجتمع هو ونهر الكر وبينهما مدينة البيلقان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٥٠-٢٥١) .

(٣٠٤) البيلقان : مدينة قرب (باب الأبواب) تعد من إرمينية الأولى قريبة من (شروان) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٤٠-٣٤١) .

(٣٠٥) ابن الأثير (٥/١٥٩-١٦٢) .

(٣٠٦) ميمذ : مدينة بأران في إرمينية الأولى ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٢٧) .

وكتب مَسْلَمَة إلى هشام بن عبدالملك بما حدث ، فكتب هُشام إلى مَسْلَمَة :

أتتركُهُمْ بميمَذ قد تراهم   وتطلبهم بمنقطع الطريق !

وأمر هشام بإطلاق سراح الحَرَشِيّ من سجنه [٣٠٧] ، فرحل إلى دمشق [٣٠٨]

٧ : جهاد مروان بن محمد بن مروان الأموي

تولّى مَسْلَمَة بن عبدالملك إرْمِينِيَة وأَذْرَبِيْجان للمرّة الثالثة سنة اثنتي عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٠) بعد استشهاد الجرّاح بن عبدالله الحَكَميّ كما ذكرنا ، وكان معه ابن عمّه مَرْوان بن محمد بن مروان ، فنازل مروان الخَزَر مع مسلمة وأبلى وقاتل قتالاً شديداً[٣٠٩] .

وفي سنة أربع عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٢ م) ، استعمل هشامُ بن عبدالملك مروانَ بن محمد بن مروان وهو ابن عمّه على (الجزيرة) وأذربيجان وإرمينيَة وعزل مَسْلمة بن عبد الملك أخاه عن إرمينية وأذربيجان [٣١٠] ، وكان ذلك في مستهل شهر المحرّم من هذه السنة[٣١١] .

وسيّر هشام الجنود من الشام والعراق والجزيرة إلى إرمينية ، فاجتمع عند مروان من الجنود والمتطوّعة مئة وعشرون ألفاً . وأظهر مروان بعد إكمال حشد رجاله أنه يريد غزو (اللان) وقصد بلادهم ، وأرسل إلى ملك الخَزَر يطلب منه المهادنة فأجابه إلى ذلك ، وأرسل ملك الخَزَر إلى مروان وفداً لتقرير شروط الصلح ، فأمسك مروان الوفد عنده إلى أن فرغ من جهازه ، ثمّ أغلظَ للوفد الخَزَريّ القول وآذنه بالحرب . وسيّر مروانُ وفد الخَزَر إلى ملكهم بذلك ، ووكل به مَنْ يسيّره

(٣٠٧) فتوح البلدان (٢٩٠) .   (٣٠٨) ابن الأثير (١٦٢/٥) .

(٣٠٩) فتوح البلدان (٢٩٢) .

(٣١٠) الطبري (٩٠/٧) وابن الأثير (١٧/٥) والنجوم الزاهرة (٢٧٢/١) .

(٣١١) تاريخ خليفة بن خياط (٣٥٩/٢) .

على طريق فيه بُعْد ، ثم انطلق هو في أقرب الطرق ، فما وصل الرفدالخَزَرِيّ إلى ملكهم إلا ومروان قد وافاهم . وأعلم الوفد ملكَ الخزر بإخفاق المفاوضات مع المسلمين ، وأنهم قد قرّروا الحرب ، فاستشار الملك أصحابه ، فقالوا : إنّ مروان قد أغَرّكَ ودخل بلادك ، فإن أقمتَ إلى أن تجمع رجالك ، لم يجتمع عندك إلى مدّة فيبلغ منك ما يريد ، وإن أنت لقيته على حالك هذه هزمك وظفر بك ، والرأي أن تنسحب إلى أقصى بلادك وتدَعَه وما يريد . فقَبِل رأيهم وسار حيث أمروه.

ودخل مروان البلاد وأوغل فيها وأخربها وغنم وسبى حتى انتهى إلى آخرها في توغّله ، وأقام فيها عِدّة أيام حتى أذلّ الخزر وانتقم منهم .[٣١٢]

وفي رواية ، أنّ ملك الخزر حين بلغه كثرة مَنْ وطئ به مروان بلاده من الرجال وما هم عليه في عُدّتهم وقوّتهم ، امتلأ قلبه رعباً . ولما دنا مروان من عاصمة ملك الخَزَر ، أرسل إلى ملك الخزر رسولاً يدعوه إلى الإسلام أو الحرب . فقال الملك : « قد قبلتُ الإسلام ، فأرسل إليّ مَنْ يعرضه عليّ » ، ففعل مروان .

وأظهر ملكُ الخَزَر الإسلام ، وودع مروان الذي أقرّه في مملكته ، وسار مروان مع الملك بخلق من الخَزَر ، فأنزلهما بين (السّمُور) و (الشّابَران)[٣١٣] في سهل أرض (اللّكْز)[٣١٤] .

وكان مروان قبل أن يتقدّم إلى بلاد الخَزَر ، قد نزل مدينة (كِسال) وهو الذي بنى مدينتها وهي من (بَرْذَعة) على أربعين فرسخاً ، ومن (تَفْلِيس)

(٣١٢) ابن الأثير (١٧٨/٥) .

(٣١٣) السمور والشابران : لم أجد لمدينة السمور ذكراً في معجم البلدان ، أما الشابران ، فهي مدينة من أعمال أران ، بينها وبين مدينة شروان نحو عشرين فرسخاً ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٠٥/٥) ، والظاهر ان مدينة السمور في تلك المنطقة أيضاً قريبة من الشابران .

(٣١٤) فتوح البلدان (٢٩٢) .

على عشرين فرسخاً ، ثمّ دخل أرض الخَزَر مما يلي باب (اللان) بِرَتَلٍ تحت قيادته ، وأمر أَسِيْد بن زافر السُّلَميّ أبا يزيد ومعه ملوك الجبال أن يدخل أرض الخَزَر من ناحية (باب الأبواب) على رأس رَتَل آخر ، فأغارَ مروان على (صقالبة) [٣١٥] كانوا بأرض الخَزَر . فسبى منهم عشرين ألف بيتٍ ، وأسكنهم (خَاخِيْط) ، ولكنّ الصّقالبة قتلوا أميرهم وهربوا ، فطاردهم مروان وقتلهم [٣١٦]

ودخل مروان بلاد ملك (السّرير) [٣١٧] ، فأوقع بأهله وفتح قلاعاً ودان له الملك وصالحه على ألف رأس : خمسمائة غلام وخمسمائة جارية في كل سنة ، وعلى مئة ألف مُدْيٍ [٣١٨] تحمل إلى أهراء مدينة (الباب) ، وأخذ منه الرهن .

وصالح مروان أهل (تُومان) [٣١٩] على مئة رأس : خمسين جارية وخمسين غلاماً وعشرين ألف مُدْيٍ للأهراء في كل سنة .

ثمّ دخل أرض (زِرِيكِران) فصالحه ملكها على خمسين رأساً وعشرة آلاف مُدْيٍ للأهراء في كل سنة .

ثم أتى أرض (حمزين) ، فأبى حمزين أن يصالحه ، فحصرهم وافتتح حصنهم بعد أن حاصرهم شهراً ، فأحرق وأخرب ، وكان صلحه إياه على خمسمائة رأس يؤدونها دفعة واحدة ثم لا يكون عليه سبيل ، وعلى أن يحمل ثلاثين ألف مُدْيٍ إلى أهراء الباب في كل سنة .

ثمّ أتى مروان (سُغْدان) [٣٢٠] ، فافتتحها صلحاً على مئة رأس يعطيها

---

(٣١٥) الصقالبة : (ج) صقلب ، جبل حمر الألوان صهب الشعور يتاخمون بلاد الخزر في أعالي جبال الروم ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٧٢-٣٧٣) .

(٣١٦) فتوح البلدان (٢٩٢) .

(٣١٧) السرير : مملكة واسعة بين (اللان) وباب الأبواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٨٠) .

(٣١٨) المدي : مكيال في الشام ومصر يسع تسعة عشر صاعاً .

(٣١٩) تومان : لم أجد لها ذكراً في معجم البلدان ، والظاهر أنها في منطقة اللان .

(٣٢٠) سغدان : وردت كذلك في ابن الأثير (٥/١٧٨) ، ووردت : سدان في فتوح البلدان (٢٩٣) ، والأول (أصح) .

إيّاها صاحبها دفعة واحدة ، ثمّ لا يكون عليه سبيل فيما يُستَقبَل ، وعلى أن يحمل في كلّ سنة إلى أهراء الباب خمسة آلاف مُدْيٍ .

ووظف مَرْوان على أهل (طَبَرْ سَرَانْشاه) (٣٢١) عشرة آلاف مُدْيٍ في كل سنة تحمل إلى أهراء الباب .

ولم يوظّف على (فِيلاَنشاه) شيئاً ، وذلك لحسن غنائه وجميل بلائه وإحماده أمره

ثمّ نزل مروان على قلعة (اللّكْز) وقد امتنع صاحبها من أداء شيء من الوظيفة وكان صاحبها قد خرج يريد صاحب الخَزَر فقتله راع بسهم رماه به وهو لا يعرفه، فصالح أهل اللّكْز على عشرين ألف مُدْيٍ تحمل إلى أهراء مدينة الباب .

وسار مروان إلى قلعة (شَرْوان) وهي تدعى (خِرْس)(٣٢٢) وهي على البحر ، فأذعَن أهلها بالطّاعة والانحدار إلى السّهل ، وألزمهم عشرة آلاف مُدْيٍ في السنة .

وجعل مَرْوان على صاحب (شَرْوان) أن يكون في المقدّمة إذا بدأ المسلمون بغزو الخَزَر وفي السّاقة إذا رجعوا .

وجعل على فِيلاَنشاه أن يغزو مع المسلمين فقط ، وعلى طَبَرْسَرَانْشاه أن يكون في السّاقة إذا بدأوا وفي المقدمة إذا انصرفوا .

وسار مروان إلى (الدّودانيّة)(٣٢٣) ، فأوقع بهم ، ثم عاد أدراجه إلى مقرّه(٣٢٤)

---

(٣٢١) ملك أنوشران ملوكاً رتبهم ، وجعل لكل أمرئ منهم شاهية ناحية من النواحي ، فمنها خاقان الجبل ، وهو صاحب السرير ويدعى وهرارزانشاه ، ومنهم ملك فيلان وهو فيلان شاه ، ومنهم طبرسرانشاه ، وملك اللكز ويدعى جرشانشاه، وملك ليران ويدعى ليران شاه ، وملك شروان ويدعى شروانشاه ، انظر التفاصيل في فتوح البلدان (٢٧٦-٢٧٧)، وهم ملوك الطوائف في إرمينية الذين كانوا يحكمون باسم الفرس في حينه .

(٣٢٢) خرس : وردت في فتوح البلدان (خرش) خطأ من الناشر والمحقق، وهي حصن بارمينية على البحر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤١٩/٣) .

(٣٢٣) قوم يدعون أنهم عرب من نسل دودان بن أسد بن خزيمة .

(٣٢٤) انظر التفاصيل في فتوح البلدان (٢٩٢-٢٩٤) وانظر ابن الأثير(١٧٨/٥-١٧٩).

ومن الواضح أنّ مروان أحرز انتصارات باهرة في غزوته هذه السنة ، فافتتح عهده في إرمينية افتتاحاً موفّقاً : استعاد المناطق التي انتقضت ، وقاتل الذين أصرّوا على انتقاضهم وصالح الذين احبّوا الطّاعة والسّلام ، وأدب الذين اعتادوا إشاعة الفوضى وكافأ الذين اعتادوا النِّظام ، وطبّق عملياً مبدأ العقاب والمكافأة بالنسبة للمسيئين والمحسنين ، وقسّم الواجبات القتاليّة على القادة المحليين والواجبات الإداريّة على الإداريين .

ولم يكن لمروان سنتي خمس عشرة ومئة الهجرية (٧٣٣ م) وست عشرة ومئة الهجرية (٧٣٤ م) أيّ نشاط عسكريّ في إرمينية ، مما يدلّ على نجاح تدابيره العسكرية والإدارية فيها .

ولكنه بعث بَعْثين سنة سبع عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٥ م) إلى جبل (القَبْق) وهو جبل القفقاس الكبرى ، فافتتح أحدُ البعثين ثلاثة حصون من (اللان) ، ونزل البعثُ الآخر على تُومانشاه ، فنزل تومانشاه على حكم مروان ، فبعث به مروان إلى هشام بن عبدالملك في (دِمَشْق) ، فردّه هشام إلى مروان ، فأعاده مروان على مملكته [٣٢٥] .

ومن الواضح أن الاضطرابات التي حدثت في إرمينية كانت اضطرابات طفيفة ، لذلك بعث مَن يعالجها ولم يتولّ معالجتها بنفسه ، كما أنّ عفوه عن تُومان شاه وإعادته إلى مملكته دليل على أن اضطراباته لم تكن خطيرة فتمّ تسويتها بسلام .

وفي سنة ثماني عشرة الهجريّة (٧٣٦ م) غزا مروان أرض (وَرْتَنِيْس)[٣٢٦] فدخلها من ثلاثة أبواب ، فهرب وُرْتَنِيْس إلى الخَزَر وترك القلعة ، فنصب مروان عليها المجانيق . وقُتِل ورتنيس في طريقه إلى الخَزَر ، فبعث مَنْ قتله برأسه إلى مروان ، فنصبه لأهل حصنه ، فنزلوا على حكم مروان ، فقتل المقاتلة وسبى الذرية [٣٢٧] .

(٣٢٥) تاريخ خليفة بن خياط (٣٦٢/٢) وابن الأثير (١٨٦/٥) .
(٣٢٦) ورتنيس : حصن في بلاد سمياط ، انظر التفاصيل في معجم البلدان(٤١٣/٨) .
(٣٢٧) تاريخ خليفة بن خياط (٣٦٣/٢) وابن الأثير (١٩٨/٥)، وورد فيه : ورنيس .

وفي سنة تسع عشرة الهجرية (٧٣٧ م) غزا مروان في إرمينية ، فدخل من باب اللان ، واخترق هذه الولاية حتى خرج منها إلى بلاد الخَزَر ، فمرّ بمدينة (بَلَنْجَر) و (سَمَنْدَر) وانتهى إلى (البيضاء) عاصمة خاقان ، فهرب خاقان منه [٣٢٨] .

وكانت هذه الغزوة من غزوات مروان الشاملة التي قصد بها إبراز قوّة الدولة الإسلاميّة ومقدرتها على قمع كلّ انتقاض بكفاية وسرعة .

ويبدو أن هذه الغزوة أثمرت في توطيد الأمن والاستقرار في ربوع إرمينية ، فقد كانت سنة عشرين ومئة الهجرية (٧٣٨ م) سنة سلام واستقرار في أرجاء إرمينية بالنسبة للمسلمين وبالنسبة للسكان الأصليين ، إذ لم يَغْزُ مروان هذه السنة ، فاستعادت قوّات المسلمين أنفاسها ، وأكملت استحضاراتها لجهاد جديد .

وفي سنة إحدى وعشرين ومئة الهجرية (٧٣٨ م) ، غزا مروان في إرمينية ، فأتى قلعة بيت السّرير فقتل وسبى .

ثمّ أتى قلعة ثانية ، فقتل وسبى أيضاً .

ودخل مروان (غومَسْك) [٣٢٩] وهو حصن فيه بيت الملك يكون فيه ملك السّرير ، فخرج الملك هارباً حتى أتى حصناً يقال له (خترج) [٣٣٠] فيه سرير الذّهب ، فأقام مروان عليه شتوةً وصيفةً ، فصالحه على ألف رأسٍ في كل سنة ومئة ألفِ مُدْيٍ .

وسار مروان ، فدخل أرض (تُوْمان) ، فصالحه تومان ملكُها .

وسار مروان ، فدخل أرض (زَرُوبُكْزان) [٣٣١] فصالحه ملكها .

---

(٣٢٨) تاريخ خليفة بن خياط (٣٦٤/٢) وابن الأثير (٢١٥/٥) وانظر النجوم الزاهرة (٢٨٢/١)

(٣٢٩) ورد كذلك في تاريخ ابن خياط (٣٦٧/٢)، أما في ابن الأثير (٢٤٠/٥) فقد وردت : غوميك .

(٣٣٠) ورد كذلك في تاريخ ابن خياط (٣٦٧/٢) ، أما في ابن الأثير (٢٤٠/٥) ، فقد وردت : خيزج .

(٣٣١) وردت كذلك في ابن خياط (٣٦٧/٢)، أما في تاريخ ابن الأثير (٢٤٥/٥) ، فقد وردت : أزرو بطران .

وسار حتى أتى (حمزين) [٣٣٢] فأخرب بلاده ، وحصر حصناً له شهراً فأخرب بلاد حمزين ، ثم سأله حمزين الصلح فصالحه .

وأتى مروان أرض (مسدار) [٣٣٣] فافتحها على صلح ، ثم نزل على (كيْران)[٣٣٤] ، فصالحه طَبَرْسَرانشاه وفيلان شاه .

وكلّ هذه الولايات على شاطئ البحر من إرمينية إلى (طَبَرستَان)[٣٣٥] .

ومن الواضح أنّ هذه الغزوة كانت لغرض فرض سيطرة الدولة على الذين انتقضوا وإظهار قوّتها للذين خالفوا وللذين يتردّون في إعلان مخالفتهم ، والقوّة هي السبيل الوحيد لقمع الفوضى وفرض النظام .

وقد تهيأ لمروان في هذه السنة من الفتوحات أمرٌ عظيم ، ووقع في قلوب الخزَر والترك منه رعبٌ عظيم [٣٣٦] .

وقد وطّد أركان الأمن والاستقرار في إرمينية، وأصبح الذين كان دأبهم، الانتقاض على الدولة والشّغب عليها وقطع الجزية عنها أو المماطلة في أدائها يخافون مروان ويهابونه ويطيعونه وينفذون أوامره ، كما أصبح للدولة هيبة في نفوس السكّان لذلك نعمت إرمينية بالسّلام والاستقرار ، وانصرف مروان إلى التعمير ، حتى عاد أدراجه من إرمينية إلى دمشق على رأس جيش ضخم سنة سبع وعشرين ومئة الهجرية (٧٤٤ م) مطالباً بالخلافة ، فتولى الخلافة بعد يزيد بن الوليد بن عبدالملك، فانتهى برحيله عن إرمينية ما نَعِمَت به خلال ست سنوات من نعمة السّلام والاستقرار والتعمير ، وهي سنوات لم تنعم إرمينية بمثلها قبل مروان ولا بعده،

(٣٣٢) وردت كذلك في ابن الأثير (٢٤٠/٥) ، أما في تاريخ ابن خياط (٣٦٧/٢) ،فقد وردت : خمري .

(٣٣٣) وردت كذلك في تاريخ ابن خياط (٣٦٧/٢)،أما في تاريخ ابن الأثير (٢٤٠/٥) ، فوردت : مسدار .

(٣٣٤) كيران : مدينة بأرمينية بالقرب من بيلقان ، انظر معجم البلدان (٣٠٥/٧) .

(٣٣٥) تاريخ خليفة بن خياط (٣٦٧/٢) وابن الأثير (٢٤٠/٥) .

(٣٣٦) العبر (١٥٣/١) .

فكانت ولا يته خيراً على إرمينية: « فتح خلالها بلاداً كثيرة وحصوناً متعدّدة ، لأنه كان لا يفارق الغزو ، وأحرز انتصارات باهرة على التُّرك والخَزَر واللان وغيرهم وكان شجاعاً بطلاً مقداماً حازم الرأي » (٣٣٧) .

وبقدر نجاحه قائداً في المجال العسكري ، كان إخفاقه خليفة في المجال السياسيّ ، فخسرته العسكرية ولم تربحه السياسة ، فقد كان مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين .

ولم يستطع خلفه على إرمينية أن يملأ الفراغ الذي تركه مروان ، وشغل أيامه بالاقتتال الذي أشاعه خصوم الدولة من العرب لأسباب قبليّة ومذهبيّة وطائفية ، فأثاروا موجة عارمة من الفوضى والاضطرابات والفتن ، ولم يبق له وقت ولا قوّات للقتال لإيقاف موجة الانتقاض الذي أظهره أعداء المسلمين ، وبذلك أصبح الاقتتال هو القاعدة والقتال هو الاستثناء ، وأصبحت سيوف العرب المجاهدين على العرب لا على أعدائهم .

وتوقّف الفتح واستعادة الفتح بسقوط الأُمويين ، وكان قصارى ما يطمح إليه العباسيون هو المحافظة على البلاد المفتوحة ، أما إضافة فتح جديد فقد ذهب إلى غير رجعة .

عِبْرَة استعادة الفتح

بمقارنة سير الحوادث في فتح إرمينية بسير الحوادث في استعادة فتحها تبرز حقائق واضحة جليّة ، ما أحرانا أن نعتبر بها في حاضرنا ومستقبلنا ، لأنّ التاريخ ليس قصّة للتسلية وتبديد الوقت سدى ، بل للعبرة للدارسين والباحثين والسّامعين ، لا بدّ من الاعتبار بها من أجل حاضر أفضل ومستقبل أحسن ، وفائدة التاريخ تكمن في اتخاذ حوادثه عبرة للأمة التي سجل أحداثها بخاصة ولغيرها من الأمم بعامة .

(٣٣٧) البداية والنهاية (١٠/٤٧) .

وكان المسلمون الأوّلون يحرصون على تعليم القرآن الكريم والحديث الشّريف واللّغة والتاريخ وعلى تعلّمها ، لتقويم عقولهم وقلوبهم وألسنتهم لبناء الفرد المسلم إنساناً ، وابناء المجتمع الإسلامي أمّةً ، حتى يتربّى الفرد مثالياً والأمة لا تُقْهر أبدا

وكان الفرد يعتبر بالتاريخ ايتأسّى بالمُحْسِنِيْن فيسجّل بأعماله صفحات من نور في تاريخ أمّته، ويترفّع عن أخطاء المُسِيْئين حتى لا يَسوّد صفحات أمته ويلحق بها العار .

وكانت الأمّة تعتبر بالتاريخ ،للتأسّي بالأمم المُحْسِنة ، فتسجّل بأعمالها صفحات من نور في تاريخها تنافس بها الأُمم الأخرى، وتترفّع عن أخطاء الأُمم المسيئة ، حتى لا تسوّد تاريخها وتلطّخه بالعار .

لقد فتح المسلمون إرمينية لأول مرّة بسهولة ، ولكنهم استعادوا فتحها بصعوبة. وكان الفتح بسرعة ، وكانت الإستعادة ببطء .

وكان الفاتحون قليلين عَدَداً ، فأصبحوا كثيرين عَدَداً وعُدَداً في أيام استعادة الفتح .

وكان الفاتحون قليلي الخبرة والتجربة ، فأصبحوا خبراء بالبلاد وسكّانها وأصحاب تجربة عملية طويلة في أيام استعادة الفتح .

وكانت خسائر الفاتحين بالأموال والأرواح قليلة ، فأصبحت خسائر المُسْتَعِيْدِين بالأموال والأرواح كثيرة .

فكيف أصبحت النتائج بعكس المقدّمات ؟ !

إنّ المفروض في حالة ازدياد تَعْداد الفاتحين وعُددهم ، وتكاثر خبرتهم وتضاعف تجربتهم في البلاد وأهلها ، أن يكون استعادة الفتح أسهل من الفتح لا أصعب منه وأسرع في استعادة الفتح من الفتح لا أبطأ منه ، وأن تكون الخسائر بالأرواح والأموال أقلّ في استعادة الفتح لا أكثر منها في الفتح ، وبخاصة أنّ أهل البلاد لم تتطوّر قوّتهم الضّاربة بعد الفتح ولا في أيام استعادة

الفتح ، فما تغيّر أهل البلاد ، ولكنّ الفاتحين في أيام استعادة الفتح غيّروا ما بأنفسهم ، فتزعزعت معنوياتهم التي كانت الحافز الأول للفتح ، وضعفوا واستكانوا ولم يُفلحوا ابدا .

لقد كان المسلمون أيام الفتح محرِّرين كما رآهم أهل البلاد ، فأصبحوا أيام استعادة الفتح مستَعْبِدِين في نظر أهل البلاد ، لأنّ المسلمين كانوا يطبّقون الحرب العادلة نصاً وروحاً في أيام الفتح ، تلك الحرب التي تنصّ عليها تعاليم القتال في الاسلام ، فكانوا محرِّرين للشعوب حقاً، هدفهم إعلاء كلمة الله ونشر الفضيلة والتسامح والإخاء والمُثُل العليا بين الناس ، فلابد أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً ، وأن يُقبلوا على تعلّم العربية الفصحى لأنها لغة الكتاب العزيز ولغة الإسلام ولغة الفاتحين ، رهبان الليل وفرسان النهار الذين كانوا يمثلون تعاليم الإسلامي في تطبيقها العملي بشراً سوياً يمشون على الأرض ويأكلون الطعام كسائر البشر ، فكان الفتح فتح مبادئ لا فتح سيوف، لذلك كان فتحاً سهلاً سريعاً مُيَسّرا .

وقال قائل أهل البلاد المفتوحة من إرمينية : « والله لأنتم أحبّ إليّ مَلَكَةً من آل كسرى ، والله لا يقوم لكم شيْ ما وفيتم وَوَفَى ملككم »[٣٣٨] ، وكان هذا القائل هو شهر براز ملك مدينة (باب الأبواب)الذي تولّى الملك على عهد كسرى قبل أن يفتح المسلمون بلادهُ ، وتولّى على عهد المسلمين الفاتحين ، فجرّب حُكْم كسرى ، ثم جرّب حكم المسلمين ، فقال ما قاله نتيجةً لتجربته لا نتيجة لعاطفته .

ولما غزا عبدالرحمن ذو النور بن ربيعة الباهِليّ بلاد الخَزَر لأول مرة سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢ م) على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، والخَزَر من أشدّ الأمم قوّةً وشجاعة وإقداماً ، قال الخزر : ما اجترأ علينا هذا

(٣٣٨) الطبري (١٥٩/٤) .

الرَّجل إلاّ ومعه الملائكة تمنعه من الموت [٣٣٩]! فتحصن منه الخَزَر وهربوا ، فرجع بالغُنْم والظّفر بدون خسائر في الأرواح [٣٤٠] .

ولكنّ تغيّر كثير من الذين تحمّلوا أعباء استعادة الفتح ، فقد كان جند الكوفة حينذاك ينهض بمهمة الفتح واستعادة الفتح في الجبهة الشرقية للدولة الإسلاميّة ومنها إرمينية ؛ فتبدّل أهل الكوفة لاستعمال مَن ارتدّ في جيوش المسلمين استصلاحاً لهم ، فلم يصلحهم ذلك وزادهم فسادا أن سادهم مَن طلب الدنيا [٣٤١] .

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٦٥٢ م) قاد عبدالرحمن ذو النور بن ربيعة الباهليّ جيشاً إلى (بَلَنْجَر) في بلاد الخَزَر من إرمينية ، أي إلى المنطقة التي هاجمها قبل عشر سنوات فقط ، فكان الجيش الذي قاده في الغزوة الأولى مؤلفاً من عناصر وصفهم عبدالرحمن بقوله : « أقوام صحبوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ودخلوا في هذا الأمر – يريد هذا الدين – بنيّة ، كانوا أصحاب حياء وتكرّم في الجاهليّة ، فازداد حياؤهم وتكرّمهم ، فلا يزال هذا الأمر لهم ، ولا يزال النصر معهم حتى يغيّرهم مَنْ يغلبُهم ، وحتى يُلْفَتُوا عن حالهم بمن غيّرهم » ، فغزا في هذه الغزوة الأولى (بَلَنْجَر) وبلغت خيله (البيضاء) على رأس مائتي فرسخ من (بَلَنْجَر) بدون خسائر في الأرواح أما في غزوته الثانية التي كانت سنة اثنتين وثلاثين الهجرية ، بعد تغيّر في نفوس الفاتحين أو تغيّر قسم من نفوس الفاتحين ، فقدغزا (بَلَنْجَر) فاستُشهد عبدالرحمن وانهزم المسلمون وتفرّقوا [٣٤٢] .

وقد انتبه عثمان بن عفّان إلى تغيّر نفوس قسم من الفاتحين ، فكتبَ إلى عبدالرحمن قبل أن يخوض معركة (بَلَنْجَر) الثانية يقول : « إنّ الرعيّة قد أبْطَرَ كثير منهم البِطْنَة ، فقصّر ، ولا تقتحم بالمسلمين ، فإنّي خاشٍ أن

---

(٣٣٩) الطبري (١٥٨/٤) وابن الأثير (٣٠/٣)
(٣٤٠) الطبري (١٥٨/٤) .
(٣٤١) الطبري (١٥٨/٤) .
(٣٤٢) الطبري (١٥٨/٤) .

يُبْتَلَوا » ، فلم يزجر ذلك عبدالرحمن عن غايته [٣٤٣] ، فقُتل وقتل كثير من رجاله ، وانهزم المسلمون هزيمة نكراء ! ! .

إنّ أكثر الذين خاضوا معارك الفتح في إرمينية وفي غيرها من البلاد من أصحاب (القلوب) ، فأصبح أكثر الذين خاضوا معارك استعادة الفتح في ارمينية وفي غيرها من البلاد المفتوحة ، من أصحاب (الجيوب) .

وبتعبير آخر ، إنّ أكثر جنود الفتح وقادته ، كانوا من ذوي العقيدة الراسخة التي تجعلهم يتحلّون بمزية : (إرادة القتال) لتحقيق هدفها الواضح ، وهو : إنما هي إحدى الحُسْنَيَيْن : النصر أو الشّهادة .

وأصحاب العقيدة الرّاسخة ، يعملون لعقيدتهم التي هي المصلحة العليا للمسلمين كافة في العزّة والكرامة ، والدفاع عن الأرض والعِرْض ، ونشر الفضيلة والأخوّة والمُثُل العليا بين الناس ، والترفّع عن الظلم والاستغلال والاستثمار والمصالح الشخصيّة للفرد .

أما أكثر جنود استعادة الفتح وقادته ، فقد تخلّوا بدرجات متفاوتة عن عقيدتهم الرّاسخة التي قادت سلفهم إلى النصر ، وخسروا مزيّة : (إرادة القتال) ، فأصبحوا يعملون لانفسهم لا لعقيدتهم أو لمصلحة المسلمين العليا ، فتخلّى عنهم النصر ، واستهان بهم عدوّهم .

والفرق بين أصحاب العقيدة الرّاسخة وأصحاب العقيدة المهزوزة ، أن كلّ فرد من الأولين يتمنى أن يموت قبل صاحبه ، وكلّ فرد من الآخرين يتمنى أن يموت صاحبه قبله !

وليس معنى ذلك ، أنّ جميع الذين شهدوا الفتح صالحون خيّرون ، وأنّ جميع الذين شهدوا استعادة الفتح طالحون سيّئون ، ولكنّ كان الغالبية العظمى من الذين شهدوا الفتح من ذوي العقيدة الراسخة والأقليّة النادرة من ذوي العقيدة المهزوزة ، بينما انتشر الانحراف بين الذين شهدوا استعادة الفتح ، وثبت قسم على

(٣٤٣) الطبري (٣٠٤/٤) .

عقيدتهم الرّاسخة فلم يُبدِّلوا أو يُغيِّروا ولم يتبدّلوا أو يتغيّروا .

فقد قرأنا أنّ قائداً من قادة الفتح قُدِّمت له ياقوته حمراء هي أغلى من مدينة (باب الأبواب) ، فردّها إلى صاحبها غير مكترث بها ولا بقيمتها [٣٤٤] ، لأنّ أمانته أغلى عليه ، فآثر الأمانة على الخيانة ، وما عند الله على ما عند الناس .

وقرأنا أن قائداً من قادة استعادة الفتح ، أصطفى أموال المغلوبين وذراريهم ، فأخذ منها ما أعجبه ، وأمر بتقسيم الباقي على رجاله [٣٤٥] ، لان أمانته هانت عليه ، فآثر المَغْنَم على الأمانة ، وما عند الناس على ما عند الله .

ولكن لم تخل أجْنادُ استعادة الفتح وقادته من عناصر صالحة خيِّرة تعتبر نماذج عالية في الصّلاح والخير .

فقد استشهد الجرّاح بن عبدالله الحكّمي في إرمينية سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية مُقبلاً غير مُدْبِر ، صابراً محتسباً [٣٤٦]

واشترى أحد جنود استعادة الفتح جُوْنة [٣٤٧] بدرهمين ممّن يتولى بيع ما تبقّى من الغنائم في مزاد علنيّ، فلما عاد بها إلى خيمته في المعسكر فتحها ، فوجد فيها سبائك من ذهب ، فرجع وهو واضع يده على لحيته كأنه رمى وردّ الجُونةَ وأخذ الدرهمين ، فلما ذاع الخبر طُلب فلم يوجد [٣٤٨] ! .

وبعث قائد من قادة استعادة الفتح أحد رجاله سِرّاً إلى مدينة يحاصرها العدو ويضيّق عليها الخناق ، وهي غاصّة بالمسلمين وذرّياتهم ، ليعرِّفهم وصول المد من المسلمين إليهم قريباً ويأمرهم بالصّبر واخترق الرجل مواضع العدو الحصينة متحدّياً الأهوال والأخطار ، فألقي القبض عليه ، فسألوهُ عن حاله ، فأخبرهم

---

(٣٤٤) الطبري (٥/١٥٩-١٦٠) . (٣٤٥) الطبري (٧/١٠) .
(٣٤٦) ابن الأثير (٥/١٥٩) .
(٣٤٧) الجونة : سليلة مستديرة مغشاة بالجلد يحفظ فيها العطار الطيب ، وفي الحديث في صفته صلى الله عليه وسلم : « فوجدت ليده برداً وريحاً كانما أخرجها من جونة عطار » ج : جون . (٣٤٨) الطبري (٧/١٠) .

وصدقهم ، فقالوا له : إن فعلتَ ما نأمرك به أحسنّا إليك وأطلقناك : تقول لأهل البلد المحاصَرين ، إنكم ليس لكم مَدَدٌ ولا مَنْ يكشف ما بكم ، وتأمرهم بتسليم البلد إلينا . . . . فأجابهم إلى ذلك .

ولما قاربَ المدينة وقف بحيث يسمع أهلها كلامه ، فقال لهم : « أتعرفونني ؟ قالوا : نعم ، أنت فلان . قال : « فإنّ جيش المسلمين قد وصل إلى مكان كذا في عساكر ، وقائد الجيش يأمركم بحفظ البلد والصّبر ، وفي هذين اليومين يصل إليكم » ، فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتّهليل .

وقتل العدو ذلك الرجل ، ورحلوا عن المدينة المحاصَرة ، ونجا أهلها من القتل والأسر والسّبى (٣٤٩) ! .

وأوغل الخَزَر في بلاد المسلمين ، وقتلوا قائدهم في إرمينية وأبادوا رجاله وأسروا قسماً منهم وسَبوا ، فعيّن الخليفة قائداً جديداً ، وأرسله إلى إرمينية على دواب البريد ليتدارك الأمور هناك ويستنقذ المسلمين ويستعيد الفتح .

وسار القائد الجديد مسرعاً إلى إرمينية ، فكان لا يمرّ بمدينة إلاّ ويستنهض أهلها ، فيجيبه مَنْ يريد الجهاد (٣٥٠)

ولقد وضعتُ (خطّاً) تحت تعبير : مَنْ يريد الجهاد ، فالموقف الرّاهن الذي هو عبارة عن اكتساح بلاد المسلمين ، فأوغل العدو في البلاد حتى قاربوا مدينة (المَوْصِل) ، وعظم الخطب على المسلمين (٣٥١) .

في مثل هذا الموقف يصبح الجهاد فرضاً عَيْنياً على حدّ تعبير الفقهاء ، يشمل كلّ قادر على الجهاد بماله ونفسه من المسلمين : القادر على الجهاد بماله يجاهد بماله ، والقادر على الجهاد بنفسه يجاهد بنفسه ، والقادر على الجهاد بماله ونفسه يجاهد بهما معاً ، لا فرق بين غني وفقير ، أو أمير وأجير ، أو كبير وصغير وليس لمسلم في مثل هذا الموقف أن يريد أو لا يريد ، لأنّ الجهاد ليس من المسائل

(٣٤٩) ابن الأثير (٥/١٦٠) .
(٣٥٠) ابن الأثير (٥/١٦٠) .
(٣٥١) ابن الأثير (٥/١٥٩) .

ولمزاجيّة ، بل هو فرض من الفروض المقدّسة الذي يلتزم بها المسلم الحق ، إلا كان من الخوالف : يعتزله المسلمون في الدنيا ويقابلونه بالاحتقار ، وينال عقاب الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف في الآخرة .

لقد كان جنود الفتح في الأغلب من أمثال صاحب الجوْنة في أمانتهم المثالية ، وكان في جنود استعادة الفتح من أمثال صاحب الجوْنة ومن اللاهثين وراء الثراء .

وكان معظم جنود الفتح من أمثال الفدائيّ الذي ضحّى نفسه لإنقاذ المسلمين المحاصرين ؛ وكان في جنود استعادة الفتح من أمثال ذلك الفدائي قليل .

وكان المسلمون كلّهم بدون استثناء في أيام الفتح مجاهدين ، فأصبح قسم من جنود استعادة الفتح مجاهدين وقسم رضوا بأن يكونوا مع الخوالف .

وما تغيّرت العقيدة ، ولكنّ المسلمين تغيّروا .

وكان تغيير المسلمين ما بأنفسهم من عقيدة راسخة طفيفاً ، ثم ازداد التغيير شيئاً فشيئاً ، كالزاوية تبدأ صغيرة ثم يبتعد الضلعان قليلاً قليلاً ، فتزداد المسافة بين الضلعين بالتدريج ، حتى أصبح المسلمون بمرور الزمن بعيدين عن روح الإسلام الصحيح .

لقد كان الفتح بالإسلام في دعوته للجهاد بالأموال والانفس سريعاً سهلاً حاسماً قليل التكاليف ؛ ثم أصبح استعادة الفتح بالمجاهدين الصادقين وغيرهم بطيئاً صعباً متردداً كثير التكاليف ، لأنّ المجاهدين الصادقين قلّوا عدداً بالنسبة لعددهم أيام الفتح وكثر الجنود النظاميّون الذين يقاتلون لأنهم يتقاضون مرتباتهم الشهريّة من الدولة ، وشتّان بين المجاهدين الصادقين الذين يقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله وبين الجنود النظاميّين الذين يقاتلون من أجل قبض المرتّبات .

وبالرغم من ازدياد عدد الجيوش وعُددها وتضاعف تجاربها القتالية في أيام استعادة الفتح ، فإنها لم تحقق ما حققه المسلمون في أيام الفتح اندفاعاً وتضحيته ونصرا ، وهذا دليل عمليّ من سير حوادث الفتح وسير حوادث استعادة الفتح ، يدلّ بشكل قاطع على كذب ادعاء أعداء العرب والمسلمين من الأجانب وغير

الأجانب : أنّ الفتح كان لضعف الحكومات القائمة في أيام الفتح و « لعدم وجود جيش منظم قويّ يستطيع صدّ الفتح الإسلامي ويحمي البلاد المفترحة ، ولأنّ الحرب السّاسانيّة البيزنطيّة قد استنزفت كلّ قوى الدولتين ، وأنّ مصاولة الفاتحين اقتصر على السكّان المحليّين أو القوّات المحلية بطاقاتهم المحدودة » ، فقد قاتل الفاتحون في معارك حاسمة جيوش الفُرس والروم وانتصروا عليها ، ولم يقاتل المسلمون في أيام استعادة الفتح جيوش الفرس والروم في معارك حاسمة ، لأنّ دولة الفرس انقرضت والرّوم كانوا في شغل شاغل في الدفاع عن وطنهم الأم ومحاولة استعادة جزء من البلاد التي فتحها المسلمون . كما أنّ معارك المسلمين في أيام استعادة الفتح اقتصرت على السكّان المحليين والقوّات المحلية بطاقاتها المحدودة ومع ذلك خسر المسلمون معارك كثيرة ولم يخسروا معركة واحدة من معارك الفتح .

إنّ وقائع التاريخ تكذّب ادعاء أعداء العرب والمسلمين من المؤرخين الأجانب وغير الأجانب في أنّ الفتح الإسلامي كان للأسباب التي يردّدونها والتي ذكرنا مجملها ، وهدف هؤلاء هو (التهوين) من شأن الإسلام في إحراز النصر ، ومن أثره في تحقيق الفتح ، فقد حقد هؤلاء على الإسلام لأنه أكل قلوبهم وفتح بلادهم وانتشر في أرجاء العالم وأصبح القوّة التي تخيفهم وتقضّ مضاجعهم وتهدّد حاضرهم ومستقبلهم كما هدّدت ماضيهم .

ولكنّ الواقع شيء ، واتباع الهوى شيء آخر .

ولو كان انتصار المسلمين على أعدائهم في أيام الفتح ، لضعف أعدائهم دون سائر الأسباب الأخرى وعلى رأسها انتصار الفاتحين بالإسلام الذي وحّد صفوفهم وأهدافهم ، وأشاع فيهم الانسجام الفكريّ الذي يؤدي إلى التعاون فيما بينهم جماعات وأفراداً ، وأرسى دعائم مجتمع الأخوة : (إنما المؤمنون إخوة)[٣٥٢] « ولا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه »[٣٥٣] ، فجعل هـذا المجتمع

(٣٥٢) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ١٠) .

(٣٥٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والامام أحمد في مسنده عن أنس ، انظر : مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢/٣٦٦) .

كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا ، ورفع معنوياتهم . . . لكان انتصار المسلمين بعد ازدياد عَدَدهم وتضاعف خبرتهم في القتال ومعرفتهم بطبيعة البلاد المفتوحة وصفات سكّانها الأصليين ، مع بقاء عدوّهم على تفرقّهم وضعفهم وانهيار معنوياتهم ، أسهل وأسرع وأثبت في أيام استعادة الفتح ، ولكنّ الواقع التاريخي كان عكس ذلك تماماً ، مما يدل على أنّ انتصار المسلمين في أيام الفتح كان انتصار عقيدة راسخة ، وتعثر انتصارهم في أيام استعادة الفتح كان لأنّهم غيّروا ما بأنفسهم فكان منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، فتعثّر انتصارهم ولولا بقيّة من بقايا الصالحين فيهم لما انتصروا أبدا .

وكان من بوادر انحراف المسلمين في أيام استعادة الفتح عما كانوا عليه في أيام الفتح ، ظهور العصبيّة القبليّة ، والتفرقة المذهبية والطّائفية ، والتكالب على المادة أموالاً ومساكن وطعاماً وشراباً وجنساً، والحرص على المناصب الاداريّة والرّتب العسكريّة ؛ والتهالك على حبّ الدنيا وكراهية الموت .

كان رجال الفتح يحبّ أحدهم أن يموت قبل صاحبه (مجاهداً) إلاّ مَن غضب الله عليه وهم قِلّة قليلة .

فأصبح رجال استعادة الفتح يحبّ أحدهم أن يموت صاحبه قبله (قاعداً) إلاّ مَن رحم الله .

وما استطاع رجال استعادة الفتح أن ينتصروا إلاّ بالرجال الذين تمسّكوا بعقيدتهم الرّاسخة جهاداً في سبيل الله ، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه .

ولكن بمرور الزّمن تناقص عدد المجاهدين الصادقين ، فتبدّل حال المسلمين من حال إلى حال .

والعرب مادّة الإسلام كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهم قادة الفتح وجنوده وعلى أكتافهم وبجهادهم وجهودهم تحقّق النّصر فتحاً واستعادة

للفتح ، وهم الذين غيّروا ما بأنفسهم يوماً بعد يوم ، حتى ساءت الحال وتردّى المآل .

لقد كان العرب قبل الإسلام مستعبَدين للفُرس في العراق وللرُّوم في أرض الشام ، وحتى للأحباش في اليمن .

وجاء الإسلام، فاستطاع الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام أن يوحّد شبه الجزيرة العربيّة تحت لواء الإسلام ، ولا يعرف التاريخ أحداً وحّدها قبله ولا بعده حتى هذا اليوم .

وكان تَعداد صحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذين خلّفهم من بعده مئة وخمسة وعشرين ألفاً في أكثر ما ذكره المؤرخون .

وارتدّ قسم من العرب بعد التحاق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالرفيق الأعلى ، فاستطاع خليفته على المسلمين أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه أن يستعيد بهم الوحدة إلى شبه الجزيرة العربيّة ، واستطاع بهم أن يخوض معركة (اليرموك) الحاسمة التي فتحت للمسلمين أبواب أرض الشّام ، كما استطاع أن يخوض بهم معارك ثانويّة مهّدت للمسلمين فتح العراق .

وتولّى عمر بن الخطّاب الخلافة ، فأكمل الفتح الذي بدأه أبو بكر الصديق رضي الله عنهما ، ففتح العراق وإيران وأكثر مناطق إرمينية وأرض الشام بما فيها سورية ولُبنان وشرقي الأردن وفلسطين، ومصر وليبيا والنّوبة ، وكان عهد عمر بن الخطّاب هو عهد الفتح الإسلامي الذهبيّ بدون منازع (٣٥٤) .

ومع كلّ فتوحات عمر بن الخطّاب ، فقد كان حسنة من حسنات أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهما .

واستمرّ مدّ الفتح الإسلامي عارماً في أوائل عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، حتى نشبت الخلافات بين المسلمين ، فانتقض أهل فارس سنة تسع وعشرين

(٣٥٤) انظر التفاصيل في كتابنا : الفاروق القائد – ٩٣ .

ومئة الهجرية [٣٥٥] (٧٤٦ م ،) وانتصر الخَزَر والترك على المسلمين لأول مرة سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٩ م) ، فقتلوا قائد المسلمين عبدالرحمن بن ربيعة الباهليّ في (بَلَنْجَر) وكبّدو المسلمين خسائر فادحة بالأرواح والأموال [٣٥٦] وانتشرت الفرضى في عقر ديار المسلمين ، حتى قتل عثمان بن عفّان في المدينة عاصمة المسلمين سنة خمس وثلاثين الهجرية (٦٠٥ م) بيد العرب لا بيد أعدائهم [٣٥٧] .

وبدأ الاقتتال بين الفاتحين بعد استشهاد عثمان بن عفّان ، وأصبحت سيفهم عليهم لا على أعدائهم ، فانتقضت البلاد المفتوحة ، وضعفت هيبة الدولة داخلياً وخارجياً ، حتى استطاع عبدالملك بن مروان جمع شمل العرب مرة أخرى سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢ م) وإعادة الوحدة اليهم ، فكانت هذه السنة سنة الرحدة بحق ، فانطلق الفتح من جديد وانطلق استعادة الفتح ، ولكنّ عوامل التفرقة ظلّت كانّار في الرماد لا تخبو مدة إلاّ لتظهر في مدة ثانية ، حتى توقّف الفتح نهائياً سنة مئة الهجرية (٧١٣ م) .

وكان عصر الفتح وهو القرن الأول الهجريّ هو خير القرون ، ويمكن أن نقسم هذا العصر إلى ثلاثة أقسام : عهد الفتح أولاً ، وهو من غزوة (بدر الكبرى) في السنة الثانية الهجريّة (٦٢٣ م)، وكانت هذه الغزوة من الغزوات التاريخيّة الحاسمة ، بدأ فيها الفتح تدريجياً حتى شمل شبه الجزيرة العربية كلّها في وحدة عربية شاملة تحت لواء الإسلام ، وانتهى هذا العهد في سنة تسع وعشرين الهجرية (٦٥٠ م) في أوائل خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه .

وعهد الاقتتال الداخليّ من سنة تسع وعشرين الهجرية حتى سنة الوحدة في أيام عبدالملك بن مروان سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢ م) ، وفي هذا العهد

---

(٣٥٥) ابن الأثير (١٥١/٣) .

(٣٥٦) انظر التفاصيل في ابن الأثير (١٣١/٣-١٣٣) .

(٣٥٧) ابن الأثير (١٠٤/٣-١٧٩) .

توقّف الفتح لأن الفاتحين شُغلوا بالاقتتال فيما بينهم ولم يشغلوا بالجهاد ، فانتقضت كثير من البلاد المفتوحة وشاعت الفوضى في البلاد المفتوحة التي تنتقض ، حتى أدّى المسلمون الجزية للرُّوم ولغيرهم ، فأصبح الغالب مغلوباً والقائد مقوداً والمنتصر مهزوماً .

وعهد الفتح واستعادة الفتح من سنة الوحدة أي سنة ثلاث وسبعين الهجرية إلى انسحاب المسلمين من حصار القُسْطَنْطِينِيّة بقيادة مَسْلَمَة بن عبدالملك(٣٥٨) وفي هذا العهد فتح المسلمون (السِّنْد) بقيادة محمد بن القاسم الثقفيّ ، وما وراء النهر (تركستان الشرقيّة) بقيادة قُتَيْبَة بن مُسْلِم البَاهِليّ (٣٥٩) وشمالي إفريقية : الجزائر والمغرب ، بقيادة موسى بن نصير(٣٦٠) والأندلس بقيادة طارق ابن زياد (٣٦١) وموسى بن نُصَيْر اللّخْميّ ، وبعد تلك الفتوح توقف الفتح نهائياً إلاّ ما كان من فتوح قليلة في (صِقِلِّيَة) بقيادة أسد بن الفرات ، والقُسْطنطينيّة بقيادة محمد الفاتح ، وما كان من استعادة فتح القدس وفلسطين وأجزاء من أرض الشام بقيادة صلاح الدين الأيوبي .

وهذه الفتوح واستعادة الفتح التي جرت في القرن الأول الهجري يمكن اعتبارها فتوحات سَوْقِيّة لأهميتها المصيرية ، وما عداها تعتبر فتوحات تعبويّة لأنها ثانويّة

وبعد سنة مئة الهجرية حتى سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٩ م) وهي سنة سقوط الدولة الأموية في الشّام ومولد الدولة العباسية في بَغْداد ، حدثَ شيء من استعادة الفتح في خُراسان سنة ثلاث ومئة الهجرية (٧٢١ م) وسنة أربع ومئة الهجريّة (٧٢٢ م) وفي إرمينية في تلك السنة أيضاً ، وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجريّة (٧٣١ م) وأربع عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٢ م) في إرمينية

(٣٥٨) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح بلاد الروم .
(٣٥٩) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي .
(٣٦٠) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (١/٢٢١-٣٠٩) .
(٣٦١) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح الأندلس والبحار .

وبلاد الخزَر ، وكذلك سنة إحدى وعشرين ومئة الهجريّة (٧٣٨ م) ، كما حدثت عدّة غزوات دفاعيّة في هدفها هجوميّة في أسلوبها خلال هذه المدّة هنا وهناك ، لها طابع محلّي وصفة تعبويّة ، ثم توقّف استعادة الفتح أيضاً حتى سقطت الدولة الأمويّة سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية .

وسبب توقف الفتح واستعادة الفتح في هذه المدة القاحلة من حكم الدولة الأُمويّة ، تفرق كلمة الفاتحين واقتتالهم فيما بينهم ، وإقبالهم على الدنيا وانغماسهم بالترف ، واستشراء النزعة القبلية والطائفيّة بينهم وغياب الوازع الديني الذي قادهم للنصر : فقد كان في العراق خلال سنتي إحدى ومئة واثنتين ومئة الهجريتين ثورة يزيد بن المُهلّب هدّدت كيان الدولة ، وكان في خراسان اقتتال لسنة ست ومئة الهجرية بين مُضَر واليمن ، وتصاعد نشاط دعاة بني العباس في خُراسان بخاصة وفي أقطار المشرق الإسلاميّ بعامة ، وازدادت ثورات الطالبيين وكثرت مقاتلهم ، وفسدت اليمانيّة وفسدت قُضاعة وهم واليمن أكثر جند أهل الشام (٣٦٢) وأشدّهم بأساً .

ولم تقتصر التفرقة على العرب المسلمين بل شملت البيت المالك ، فقد قُتل الوليد بن يزيد بن عبدالملك نتيجة لمؤامرة يزيد بن الوليد بن عبدالملك ، وبذلك بدأت المؤامرات بين رجال البيت المالك ، حتى قال قائلهم : هَلَكَ بنو مروان ! (٣٦٣)

وبُويع يزيد بن الوليد بن عبدالملك بالخلافة سنة ست وعشرين ومئة الهجريّة (٣٦٤) (٧٤٣ م) وهو الذي تآمر على ابن عمّه وقتله ، فاضطرب أمر بني أُميّة وهاجت الفتنة ، فوثب سليمان بن هشام بن عبدالملك بعد قتل الوليد بعَمّان ، وكان قد حبسه الوليد بها ، فخرج من الحَبْس وأخذ ما كانَ بها من الأموال وأقبل إلى دمشق (٣٦٥) ، وحالف مروان بن محمد بن مروان بن الحكم

---

(٣٦٢) ابن الأثير (٥/٢٨١) .
(٣٦٣) ابن الأثير (٥/٢٨٧) .
(٣٦٤) العبر (١/١٦٢) .
(٣٦٥) ابن الأثير (٥/٢٩٢) .

وكان على إرمينية وأذربيجان فترك ولايته وأنفذ إلى الثغور مَن يضبطها ويحفظها له وسار على رأس رجاله إلى دمشق [٣٦٦] .

ومات يزيد بن الوليد بن عبدالملك سنة ست وعشرين ومئة الهجرية بعد ستة أشهر وليلتين من تولية الخلافة ، [٣٦٧] فتولاّها بعده أخوه ابراهيم بن الوليد بن عبدالملك [٣٦٨] الذي لم يتمّ له الأمر ، فكان يُسلّم عليه تارة بالخلافة وتارة بالإمارة وتارة لا يُسلّم عليه بواحدة منهما ، فمكث أربعة أشهر ، ثم سار إليه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم فخلعه [٣٦٩] .

وفي سنة سبع وعشرين ومئة الهجريّة (٧٤٤ م) بُويع مروان بن محمد بن مروان بدمشق بالخلافة [٣٧٠] ، وأعانه على تولي الخلافة جنوده الذين كانوا معه في الجزيرة وإرمينية فتركوا موطنهم وعادوا إلى دمشق وخاضوا في طريق العودة معارك طاحنة دارت بينهم وبين القوات الموالية لابراهيم بن الوليد بن عبدالملك [٣٧١] ، تكبّد الجانبان فيها خسائر فادحة بالأرواح والأموال ، كما تعرّضت البلاد المفتوحة للفتن وتوقّف الفتح واستعادة الفتح دون مسوّغ .

ولم يكد مروان يستقرّ على عرشه ، حتى خلعه سليمان بن هشام بن عبدالملك ، فدارت معارك طاحنة بين العرب الفاتحين من أنصار مروان وأنصار سليمان [٣٧٢]

وكان من نتيجة اختلاف الأمويين وتفرّقهم ، تفشّي الخلاف في البلاد الإسلامية ، فخالف أهل حمص [٣٧٣] ، وخالف أهـل فلسطين [٣٧٤] ، واضطربت أمور خُراسان [٣٧٥] ، وحارب أهل اليمامة عاملهم الذي ولاّه

---

(٣٦٦) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٥/٣٠٩-٣١٠) .
(٣٦٧) ابن الأثير (٥/٣١٠) .
(٣٦٨) العبر (١/١٦٢) .
(٣٦٩) ابن الأثير (٥/٣١١) .
(٣٧٠) العبر (١/١٦٤) .
(٣٧١) العبر (١/١٦٤) .
(٣٧٢) ابن الأثير (٥/٣٣١-٣٣٤) .
(٣٧٣) ابن الأثير (٥/٢٩٢-٢٩٤) .
(٣٧٤) ابن الأثير (٥/٢٩٤-٢٩٧)
(٣٧٥) ابن الأثير (٥/٢٩٧-٢٩٨) .

الخليفة [٣٧٦] ، ووقــع الاختلاف بين أهل خُراسان [٣٧٧]، واضطربت أمور المغرب العربي [٣٧٨] وذلك سنة ست وعشرين ومئة الهجرية (٧٤٣ م) .

وفي سنة سبع وعشرين ومئة الهجرية (٧٤٤ م) ، انتقض أهل حِمْص [٣٧٩] وخالف أهل (الغوطة) وهي جزء من دمشق وولّوا عليهم أميراً وحاصروا دمشق [٣٨٠] وخالف أهــل فلسطين [٣٨١] ، واضطرب أمر العراق [٣٨٢] ، وخلع أهل الأندلس أميرهم الشّرعي [٣٨٣] ، واشتدّ ساعد شيعة بني العبّاس في خُراسان وأقطار المشرق الإسلامي [٣٨٤] ، وهكذا شملت الفتن الأقطار الإسلاميّة البعيدة والقريبة وامتدّت إلى قلب عاصمة الدولة : دمشق ، بعد أن شملت العرب الفاتحين والمسلمين كافة وامتدّت إلى قلب الدولة الإسلاميّة : البيت المالك .

وأصبحت الدولة تهتزّ أركانها بعنف شديد ، فضاعت هيبة الدولة وتبدّدت هيبة الحُكم ، وشغل العرب عن الفتح واستعادة الفتح بالفتن والاضطرابات الداخلية.

وهكذا أصبحت سلطة الخلافة لا تتجاوز عاصمة الدولة أو لا تتجاوز القصر الذي يسكنُه الخليفة ، بينما كانت سلطة الخلافة تمتدّ من الصين شرقاً إلى قلب فرنسا غرباً ، ومن سيبريا شمالاً إلى المحيط جنوباً ، وإنما كانت سلطة الخلافة بالتمسّك بروح الإسلام الذي جعل الجهاد فريضة على القادرين على الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وأمر بالوحدة ونهى عن الفرقة ، وحارب العصبيّة والتعصّب ، وحارب الاتجاه نحو المادة تطاولاً في البنيان واكتنازاً للأموال والجشع والترف .

وليستْ بي حاجة إلى تعداد المآسي والفتن التي حاقت بالعرب في تلك السنين التي انحرف المسلمون اوأكثرهم عن دين الله ، فغيروا ما بأنفسهم ، فقد قامت

(٣٧٦) ابن الأثير (٥/٢٩٨-٣٠١)
(٣٧٧) ابن الأثير (٥/٣٠٢-٣٠٧)
(٣٧٨) انظر التفاصيل في (٥/٣١١-٩)
(٣٧٩) ابن الأثير (٥/٣٢٨-٣٢٩) .
(٣٨٠) انظر ابن الأثير (٥/٣٢٩) .
(٣٨١) ابن الأثير (٥/٣٣٠-٣٣١) .
(٣٨٢) ابن الأثير (٥/٣٣٤-٣٣٧) .
(٣٨٣) ابن الأثير (٥/٣٣٧-٣٣٩) .
(٣٨٤) ابن الأثير (٥/٣٣٩-٣٤٠) .

الدولة العباسيّة سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريّة (٧٤٩ م) ، وقتل مروان بن محمد بن مروان آخر خلفاء بني أُميّة شريداً طريداً في مدينة نائية من مدن مِصْر سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية ، وبانقضاء عهد بني أُمية انقضى عهد الدولة العربيّة التي كانت تؤمن بأنّ العرب مادة الإسلام ، وبقيام الدولة العبّاسيّة تزعزع مركز العرب وارتفع شأن الفُرس لأنهم أعانوا على قيامها بقيادة أبي مُسْلم الخُراسانيّ الذي نفذ التعليمات الصّادرة إليه وبالغ بتنفيذها ، وكان نصّ تلك التعليمات في خطاب موجّه إلى أبي مسلم الخُراسانيّ : « إنك رجل منّا . . . وأما مُضَر فإنهم العدوّ القريب الدار ، واقتل مَنْ شككتَ فيه ، وإن استطعتَ أن لا تَدَعَ بخُراسان مَن لا يتكلّم بالعربيّة فافعلْ ، وأيّما غلام بلغ خمسةَ أشبار تتّهمه فاقتله . . . » [٣٨٥] فقتل مئآت الألوف من العرب الفاتحين صبراً وغدراً في خُراسان وغيرها من أقطار المشرق الإسلامي ، وساد العنصر غير العربيّ على العنصر العربيّ بالعصبيّة والتعصّب لا بتطبيق تعاليم الإسلام .

وبدأ بقيام الدولة العباسيّة عصر التنافس بين العرب وغيرهم ، ودام هذا التنافس حتى توفّي المعتصم العباسي سنة سبع وعشرين ومئتين الهجريّة [٣٨٦] (٨٤١ م) ، وفي هذا العصر أصبحت الدولة الإسلاميّة الواحدة دولا ، وضعف شأن العرب وقلّت قيمتهم المعنوية وتولى القيادة الإدارية والعسكرية على الأكثر غير العرب ، وقلّ المجاهدون وكثر المحترفون .

وبعد المعتصم ساد العنصر الأعجميّ على العنصر العربي ، وكثرت دول الطوائف، وسيطر غير العرب على الخلفاء، وأصبحت الخلافة منصباً رمزياً له سمة دينيّة حسب والحكم لغير الخليفة ، حتى انقرضت الدولة العباسيّة على أيدي التاتار سنة ست وخمسين وستمائة الهجرية (١٢٥٨ م) ، وكان هذا العصر عبارة عن مآس قاصمة للظهر وحاقت بالمسلمين ، لأنهم تخلّوا عن الجهاد إلاّ مَن رحم الله ، وفي هذا العصر ذلّ العرب لأنهم غُزوا في عقر ديارهم وانصرفوا

(٣٨٥) ابن الأثير (٣٤٨/٥) . (٣٨٦) العبر (٤٠٠/١) .

عن الجهاد ، واعتمدوا على غيرهم للدفاع عنهم وعن أرضهم وعرضهم .

وبدأ بعد سقوط الدولة العباسيّة عصر الظلمات ، فهان العرب على أنفسهم وعلى الناس ، وتولى قيادتهم الفعليّة غيرهم من الأمم ، حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين ، حيث بدأ عصر استعمار الدول العربية .

واستقلّ المسلمون سياسيّاً وعسكريّاً واقتصادياً في أواخر النصف الأول من القرن العشرين الميلادي وفي أوائل النصف الثاني من هذا القرن ، ولكنهم يعانون من الاستعمار الفكريّ . البغيض حتى اليوم ، في غياب الجهاد عنهم وغياب التمسك بتعاليم الدين الحنيف .

وكانت انتصاراتهم في عصر الفتح الذهبيّ وعصر استعادة الفتح انتصار عقيدة ، وحّدت صفوفهم وجمعت كلمتهم وجعلتهم كالبنيان المرصوص يُشدّ بعضه بعضاً ، فاصبحوا في توحيدهم ووحدتهم قوّة لا تقهر أبدا .

فلما غيّر المسلمون بأنفسهم وانحرفوا عن عقيدتهم ، لم ينتصروا أبدا ، لأنّ أنفسهم هانت عليهم فهانوا على الأمم .

وقد جرّب المسلمون مبادئ وعقائد شتى ، فما زادتهم إلاّ ضَعْفاً وهواناً على الناس ، ولا يزالون يجرّبون مبادئ وعقائد جديدة ، ولكنهم بقوا في آخر قائمة الأمم عسكرياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً ، وحسبهم أن تعتبرهم الأمم المتقدمة في قائمة الأمم النامية ، وهو التعبير التخديريّ الذي معناه : الأمم المتخلّفة !

لقد أصبح المسلمون في سنوات معدودات بالإسلام في الأوج ، فقادوا العالم عسكريّاً وسياسياً وحضارياً ، وأصبحوا خير أمة أخرجت للنّاس .

وأمسى المسلمون منذ قرون طويلة بغياب الإسلام في الحضيض ، ففقدوا ما فتحوه وخسروا دار الإسلام واستعبدتهم الأمم ، وأمسوا أهون أمة في العالم ، وحتى أصبح للصهاينة في بلادهم دولة وكيان. لا لقوّة الصهاينة ولكن لضعف العرب .

فمتى يعود العرب والمسلمون إلى الإسلام من جديد، ليستعيدوا مكانهم ومكانتهم في الأرض ، ويعودوا خير أمة أخرجت للنّاس ! .

تلك هي عبرة : استعادة الفتح ، لعلّ فيها فائدة للمسلمين في كلّ مكان .

إنّ الطريق واضحة المعالم، ولكنّ الاستعمار الفكري الذي يسيطر على قلوب المسلمين وعقولهم معاً هو الذي جعل المسلمين يتيهون في متاهات لا أوّل لها ولا آخر ، وهو الذي جعلهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، فمتى يميّز المسلمون بين الحق والباطل ، فيقلعون عما صنعه أعداؤهم فتقبّلوه وفيه هوانهم الأبدي ؟ ! .



الفهرس

البحــوث

عرض الكتب

الجزء الثاني المجلد الرابع والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي



جمادى الآخرة ١٤٠٣ هـ
نيسـان ١٩٨٣ م